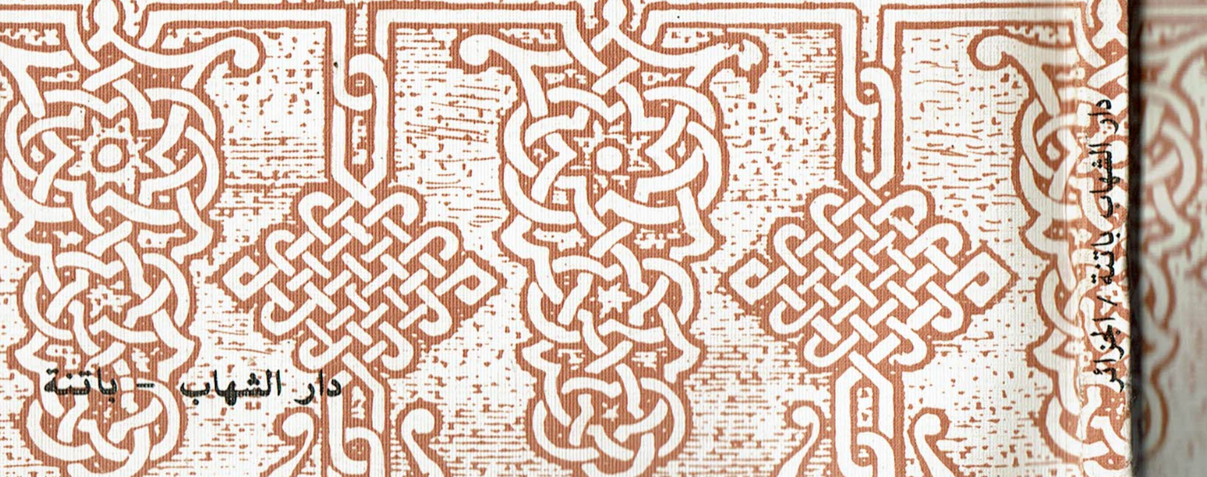


مدخل
في
دراسة الأدب المغربي القديم



العربي دحو

مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم

دار الشهاب باتنة / الجزائر



في هذا الكتاب

=== ماذا يعني المغرب قديما ؟ وماذا تعني افريقية عِند الفاتحين ؟ من أين تبدأ ، وأين تنتهي ؟

=== من هم سكانها البربر ؟ وماذا تعني كلمة البربر ؟

=== من سماهم بهذا الإسم ؟ ممن يتكونون ما رأي الدراسة الحديثة في الموضوع ؟

=== ما هي لغتهم ، وهل لهم أدب ، وفكر ، وثقافة ؟

=== ما هي علاقتهم بشعوب البحر الأبيض المتوسط ؟

=== كيف تم فتح ديارهم ، ما هو دورهم في الفتح ؟

=== كيف تعربوا ، متى بدأوا في الإبداع باللغة العربية ... ؟

=== ما هي حال الأدب في عهد الفتح والولاة ... ؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها ، فهي بذلك جديرة بالإهتمام والتنازل ... !

الناشر



تصوير وتنسيق
الأستاذ
عنتر رمضاني
لا تنسونا من خالص دعائكم

مدخل
في
دراسة الأدب المغربي القديم

العربي دحو

1406هـ ــ 1986م

دار الشهاب للطباعة والنشر
باتنة - الجزائر

الهاتف : 55 79 55 ــ 54 79 55 ــ 01 86 55

تلكس : 91092

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

الى ولدي محمد العربي الذي أتى العالم لحظة تبييض هذه الصفحات المتواضعة ، اليه ، ولأقرانه الذين ابتسموا للعالم في آونته من أبناء الجزائر العربيـة المسلمة ، وأبناء العالم الاسلامي ، اليهم وهم يذودون عن حياضهم غدا ، وعن قيم مجتمعاتهم ، وشعوبهم ، وأوطانهم .

إليهم وهم يمرحون ، ويفرحون ، معتزين بتراثهم العظيم ، وبآبائهم العظماء الكرام ، في أوطان نورها سماوي ، وترابها ممزوج بدم أولئك العظماء من آبائهم ، وأجدادهم، ومياهها شهد شفاء هولاء، وهم يعبون منها ..

إليهم وهم أمل التواصل ، والعطاء ، من أجل الخير ... والحق ... والحرية ... والسعادة .

دحو

مقدمة

تبدو النظرية الداروينية ، والنظرية الماركسية ، والنظرية اللينينية الأولى في دراسة الأجناس ، والثانية في التوجيه الاقتصادي ، والثالثة في الفيزياء وما يلحقها من العلوم . تبدو هذه النظريات هي محور العصر الحديث ، سواء كانت ضالة أو هادية . إذ أنها هي التي قادت البحث العلمي في مختلف اتجاهاته الى ما هي عليه العلوم والتكنولوجيا اليوم .

وإذا كنا هنا أمام موضوع أدبي صرف في هذه الصفحات ، فإننا احتجنا الى هذا الإلماح الذي يبدو أن جانبا منه قد مس هذه الدراسة ، وهذا الجانب هو ذاك الذي خص البحث عن أصول سكان شمال افريقيا ، أو المغرب العربي كما يسمى اليوم أو إفريقية كما كانوا يسمونها قديما ، بحيث أصبحت الدراسات الحالية أو الحديثة تحاول الانطلاق من الأصول اقتداء بالنظرية الدارونية التي حاولت أن تحدد أصل الإنسان عن طريق تعبيره الشعبي وفنه المختلف ، بغض النظر عن صواب هذه النظرية أو خطئها بخصوص الجانب الذي خص تكوين الإنسان ، أو أصل الإنسان الأول ، والذي لا نحتاج اليه كمسلمين لوجود الجواب السماوي لدينا بخصوص هذه النقطة . بغض النظر عن ذلك فإن الجانب التكنولوجي في النظرية ، أي جانب الطريقة التي سادت العالم اليوم في الموضوعات التي لها صلة بمثل موضوعنا ، وموضوعنا ، يبدو سليما منطقيا ، ولهذا باركه الدكتور زكي نجيب محمود رحمه الله ورضي عنه .

معنى هذا أني في هذه الصفحات حاولت بخصوص سكان هذه المنطقة العربية اللسان اليوم أن أقرب قدر المستطاع ما قيل بشأن انسانها الأول أو لغته ، وأدبه وصلته بالمشرق ، والمغرب ، أو بالشرق والغرب – وقد تجلى لي أن الموضوع – على الرغم من وجود إضاءات مهمة بشأنه ما يزال يحتاج الى ابحاث مستفيضة ، وفي تقديري أن هذه الأبحاث تحتاج الى رحالة جديد كابن بطوطة مرة أخرى ، لكن ابن بطوطة اليوم لا ينبغي له أن يتجاوز حدود الوطن العربي ، وعلى الأخص حدوده الشرقية ، إذ ينبغي لد أن يخيم هناك زمنا لا ستقصاء لهجات تلك الديار ، ثم يتفرغ في مغارة خلدونية جديدة لإخراج ليس مقدمة أخرى ، ولكن حقيقة ظلت تلفها الإدعاءات وتغطيها السحب زمنا طويلا ، وحاول الاستعمار تثبيت كل ذلك ودعمه أكثر مما ينبغي بالأمس ، واليوم . وبعده .

من هذا الدافع القوي ، ومن غياب كتابات علمية بأقلام مغربية اخترت أن أدرس هذه المادة -أدب مغربي قديم – في المؤسسة الجامعية التي أنتمي اليها ومنه كذلك ، ومن أسفي الشديد على غياب الدراسات التي تهتم بالأدب المغربي عموما ، وهو أدب خصب ثري ، فيه ابداع رائع -في تصورنا على الأقل- من ذلك ولأجله عزمت إصدار سلسلة من الدراسات التي تتناول هذا الأدب ولعلي بهذا المدخل المتواضع أكون قد شرعت في المهمة ، على أن لا أجهل بعض جهود إخواننا التونسيين الذين حققوا بعض المخطوطات أو درسوا بعض الموضوعات المغربية ، ومنهم العروسي المطوي ، والدكتور هشام بوقرة ، والمنجي الكعبي ، ومحقق الحلل السندسية ، وحسني حسني عبد الوهاب ، والدكتور جلول عزونة ، والدكتور الشاذلي بويحي ، وغيرهم .

ومن الجزائريين أمثال الدكتور بشير خلدون ، في دراسته الجامعية القيمة «النقد على أيام ابن رشيد» ، والدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي ، والذي اهتم بالفترة المتأخرة نسبيا ، والمرحوم رابح بونار ، ومحمد الطمار ، وصاحب كتاب الأدب في دولة بني حماد ، وإن كانت دراسة الأستاذين بونار والطمار تفتقد المنهج العلمي ، وتكتفي بالتوثيق الوجيز للنصوص بكيفية متداخلة أحيانا كما تهمل المصادر والمراجع التي اعتمدت ، وبالأخص في الهوامش حتى لا يهتدي المرء الى المصدر المعتمد بحال من الأحوال .

ومهما كان الأمر فهذه جهود محمودة ، ولعل هناك الجهود المغربية ولكني أجهلها لعدم اطلاعي عليها . وهي في عمومها تحاول نفض الغبار على هذا التراث الفذ الذي ينبغي أن يكون في متناول الأجيال ، ومع ذلك تظل محدودة ، وتظل مركزة على فترات مهملة أخرى ، وبخاصة البوادر الأولى لنشأة الأدب المغربي ، ولعل هذه الصفحات التي حاولت أن تمس بعض النقاط ، وأن تثير بعض القضايا ستكون حافزا لأساتذة وباحثين للتحقيق من هذه القضايا التي تشغل جيلنا ، وأظنّها ستشغل الأجيال اللاحقة -ولاشك- إذا ظل الموج الحالي طاغيا في ساحتنا .

وفي انتظار ذلك أضع هذه الصفحات أمام القاريء الراغب في مثل هذه الموضوعات التي تخص مواطن هذه المنطقة ، وما قيل عن نسبه ولغته ، وأدبه بالأقلام العربية والاجنبية ، وأنبه كذلك الى بعض الأخطار التي مررت له عن طريق السم في الرسم الذي تخيله نقيا سليما ، وهو خلاف ذلك تماما حتى يتفطن من لم يزل في غفوته الى هذا المرض المفتعل الذي لا علاقة له بالطبيعة التي يحيا في وسطها ، كما

سيجد أن مبعث الداء يكمن في معاداة التراث الذي يجيب عن كثير من الأسئلة ، ويوضح كثيرا من القضايا ، ولعلي أسعد يوما من الأيام برؤية من يتم هذا الجهد المتواضع ، أو أمكن في يوم من الأيام لأصير رحالة الى المناطق التي أراها تخبيء الكثير من الاجابات التي نبحث عنها ، وعن طريقها نصرخ ملء فينا بالمثل العربي الشهير «يا أبلى عودي الى مباركك» .

وفي النهاية فإن هذا الجهد لولا جهود الإخوة - جمال شايب عينو و محمد حيدوسي والعربي مزوري بهذه المطبعة لما ظهر . فلهم مني كامل الشكر والتقدير

والله أسأل التوفيق ، والعفو ، وهو من وراء القصد فهو نعم المولى ونعم الوكيل

باتنة : 1986.1.20م

العربي دحو

الفصل الأول

الأرض والإنسان
بين مختلف الآراء والدراسات في النسب واللغة

الأرض المغربية :

أطلق هذا الاسم ، أو اسم المغرب على منطقة من تراب القارة تعرف عندنا اليوم باسم قارة افريقية . ويعنون بالمنطقة التي سموها بهذا الاسم المملكة المغربية الحالية ، والجمهورية الجزائرية ، والجمهورية التونسية ، والجزء الغربي من الجمهورية الليبية عند البعض ، وهي عند البعض الآخر تخص المناطق المذكورة يضاف اليها الجزء المتاخم لليبيا من تراب الجمهورية المصرية اليوم ، وبعبارة أخرى نجد مصطلح المغرب يقصد به كل الأقاليم الواقعة غرب مصر عند الكتاب العرب ، في حين نظر العرب الفاتحون الى المنطقة محددين إياها على أساس التقسيم السياسي والاداري الموجود في عهدهم ، فقالوا : «افريقية» و «المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مطلقين في الآن نفسه اسم جزيرة افريقية » على هذه الأقاليم أو المناطق كلها معتمدين في ذلك على مدنية المنطقة وعلاقات سكانها بمن حولهم ، إذ لاحظ انطواء على أهلها وتمسكا بعاداتهم وتقاليدهم قدر المستطاع فاعتبروهم في صنف المحاصرين في جزيرة من الجزء التي تصعب الاتصالات بها لظروف خاصة[1] . وهو وصف في محله لأننا ان تتبعنا ما تم في المنطقة وحاولنا معرفة هجرات ورحلات سكانها ومَدى اخذهم من الحضارات المحيطة بهم فإننا نتفق مع وصف وتسمية الفاتحين للمنطقة فعلا .

كما أن ما تمتاز به طبيعة المغرب تجعل ضبط أقطاره الثلاثة في

---

1) شارل ، أندري جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية - تعريب : محمد مزالي ، البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر جـ/1 النشرة الثالثة 1978، ص/11 - 12 وما بعدهما .

جزيرة أو في وحدة ترابية من الصواب المؤكد نظرا لطبيعة الأقاليم أو الأقطار الثلاثة التي تكونه ، والتي تشترك في أشياء كثيرة تمسها جميعا . منها سلسلة الأطلسين الشمالي ، والجنوبي ، ومنها الصحراء ،ومنها المناخ وغيرها من العوامل الطبيعية المتعددة التي ما تزال الى اليوم تشدها الى بعضها . بل إنه من الجائز لنا أن نذهب الى أبعد من ذلك مع الذين وسعوا دائرة المنطقة فضموا اليها أجزاء من أقطار عربية أخرى كليبيا ومصر والسودان أو بعبارة موجزة فإن الذين اعتمدوا الوحدة الطبيعية أساسا لوجود تلاحم تام بين هذه الأقطار أو اعتبارها بخصائصها الطبيعية المشتركة إقليما واحدا استدلوا على وجهة نظرهم هذه بحقائق طبيعية ما زالت تشهد بصدق هذا التحديد والتقسيم ، الذي يعطينا بدقة أكثر ثلاثة أقاليم طبيعية واضحة . هي الإقليم الساحلي الممتد على ساحل البحر المتوسط من الاسكندرية الى طنجة ، ثم من طنجة الى مدينة نول في السوس . فضلا عن الطريق التاريخي –كما يسمى– الممتد برا بين برزخ السويس الى تازا وفاس بين مختلف المناطق الساحلية .

والإقليم الآخر هو الذي يضم المناطق الصحراوية الممتد من غرب مصر الى جنوب المغرب الأقصى ، هذا الاقليم الذي يوصف بالقفر ،فإن الواحات التي تتخلله . ومنابع المياه المتمد في بعض أرجائه لم يوجد التشابه بين مختلف أجزائه في الأقطار المتعددة التي يمسها ، بل مكن كذلك بهاتين الخاصتين من اجتياز القوافل لمساحاته الشاسعة في وقت أقل من الذي تستغرقه في سلكها الطريق الأخرى كما ضمن الاستقرار للراغبين فيه الى اليوم .

والاقليم الأخير الذي يعرف باسم «التل» فهو الممتد بين الاقليمين

السابقين وهو الذي يحاول مزج الطبيعتين الشمالية والجنوبية معًا والظهور بخصائصها ، أو التفاعل مع هذه أحيانا ، ومع تلك أخرى؛ بحسب الظروف الطبيعية المناخية السائدة .

يضاف الى ذلك الاتصال السريع الذي كان يتم في حالة الرغبة بين ساسة هذه الأقطار في العهود المختلفة ، والوصول الى تحقيق رغباتهم في أقصر وقت ممكن بدءًا من الفتح الإسلامي عندما شق عقبة الأقطار الثلاثة الى المحيط الأطلسي ، الى ثورات التحرير المعاصرة التي عاشها شعب[1] هذه الأقطار وخرجت منتصره منها .

وهو ما خول صاحب «القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين» أن يقول : «وتمثل مظاهر هذه الوحدة الطبيعية في المغرب في انتشار قبيلة زناتة من غدامس الى السوس الأقصى وفي القرى الصحراوية وفي سهول المحيط الأطلسي كما أن ظاهرة قيام الدول في المغرب وانتشارها السريع مثل امتداد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس والمرابطين من الصحراء الى المغرب الأوسط والموحدين الى طرابلس والمدينيين الى حدود برقة – يضيف مظهرا آخر من مظاهر الوحدة الطبيعية،وحتى الآن ما يزال المؤرخون الغربيون ينظرون الى سرعة هذا الانتشار نظرة لا تخلو من الدهشة والإنبهار»[2] .

سكان المنطقة قبل الفتح الإسلامي :

هذه الأرض التي تميزت بهذه الوحدة النادرة لوجودها في بقاع أخرى من العالم يبدو الحديث عن سكانها الأوائل ، وعن أصولهم من

1) مصطفى ، أبو ضيف أحمد عمر – القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين – ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982 ، ص/31 – 32 . وانظر كذلك عبد العزيز نبوي – محاضرات في الشعر المغربي القديم «المؤسسة نفسها» الجزائر 1983 .

2) مصطفى أبو ضيف ، المرجع السابق ص / 30

أعقد القضايا التي تواجه الباحث بالرغم من المحاولات العلمية الجادة لعلماء وباحثين مختلفين من واجهات متعددة وبلغات مختلفة من جهة أخرى أو بالرغم من الوسائل العلمية المساعدة على الاجابة عن السؤال الأساسي من أي الأصول انحدر سكان المنطقة ، والتي تبدو وفيرة في يد الباحثين المتخصصين وبخاصة في الغرب الذي يهمه كثيرا أن يفلسف رجاله أصول سكان هذه الجهة بالرغم من كل ذلك، فدار لقمان ما تزال على حالها الى اليوم ، وإن وجدنا بعض التحديدات التي تتقدم عند البعض وتتأخر عند الآخر ، وتعظم عند هذا وتضعف عند ذلك من جهة أخرى .

ومن البداية نجد التسمية ذاتها تأخذ أسماء متعددة منها «أمازيغن» الذي أخذ من «أمازيغ» المفرد ، والذي يعني «الرجل الحر» بالنسبة للمفرد و «الرجال الأحرار» بالنسبة للجمع ، أو «النبلاء» كما يرى أندري جوليان[1] أو تعني هذه التسمية كذلك ذوي الأصل الرفيع . ومنها الاسم المتداول الى اليوم بكثرة وهو «البربر» أو «البرابرة» ، والذي لم يحدد أصله بعد : بل لا ندري مصدره بعد ، وسبب إطلاقه على سكان هذه المنطقة لأن الفرضيات التي تساق في هذا المجال لا تعطي حقيقة نهائية كاملة الى اليوم .

هذه الفرضيات التي تؤخذ من الكلمة « بربر » أو « بر » ومن

1) جوليان / المرجع نفسه ص / 12

نسبتيها الى اليونان والرومان بمعنى الأول[2] ، والى العرب في المعنى الثاني ، أو تعزى الى لغة السكان الأصليين أنفسهم والتي يتساءل بشأن جذرها أو جذورها ، أو فصيلتها التي انحدرت منها ، أو تنحو منحاها فالبربر بالمعنى المنسوب الى اليونان والرومان يعني المتوحشين ، وإذا لطفت العبارة عندهم مراعاة منهم لمشاعر السكان قالوا : انها عبارة أطلقت من طرف اليونانيين على كل من لا يعرف لغتهم . والبربر بالمعنى «بر» العربي يعني الشاطيء ، أن العبلرة فيما يروى وردت مؤكدة حين استعملت إذ لفظها المتحدث مرتين : «بر» «بر» ، وقيل انها انطلقت من شفتي قائد سفينة داهمته على صفة خطيرة ، فقال لأصحابه ، أو لأبنائه : «بر» «بر» أي الى البر إلى البر مريدا بذلك نجاتهم من هذه العاصفة.

وكلا التفسيرين في اعتقادنا - لا يعطيان مانود الوصول إليه إطلاقا . فالمعنى اليوناني أو الروماني في حقيقة الأمر لا يؤكد لنا غير نظرة الغرب إلى هذه المنطقة منذ القديم ، وهي نظرة - كما تجلت لنا - اتسمت دائما بالإستهجان والإحتقار لمواطني هذه الجهة ، ومن ثمة فلا نقبل أبدا أن يكون هذا الإسم الآتي من الوصف اليوناني أو الروماني يحقق أدنى فائدة في مجال البحث . لهذا نفضل شطبه من عداد الأسماء التي يقال ان السكان

1) أندري جوليان الموضع نفسه - والذي يقول عن عبارة بربر : «لم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم ؛ بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمج ...» ص / 12 وهو ما دعمته بعض الكتابات الفرنسية الحديثة في ما عرف بالأدب الثالث ، تجد ذلك مثلا في «الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير» لصاحبته نور سلمان . دار العلم للملاين بيروت ، ط1 ، 1981 ، ص/45 ، وما تلاها . ويعني هذا عندنا أن السكان الأصليين تذمروا من هذا الاسم ، وتوارث هذا التذمر الخلف عن السلف الى يوم الناس هذا، مما يثير التقزز في نفوس الجزائريين عندما يطلق عليهم هذا ، ومما جعلهم كذلك يحاولون تلطيف الاسم ، وافراغه من معناه اليوناني ، والروماني حتى ينسى، ولكن الاستعمار يظل هو الاستعمار، إذ أنه وعلى فرض أن الإسم تنوسي نهائيا ، أو تبين الناس معناه ، فإنه - وكما بسط أجنحته على هذه الأرض - إلا وأحياه حتى يدمر المواطن من داخله ، أي حتى يكره وجوده بسبب هذه اللعنة التي تلاحقه أبدا.

عرفوا به ، ووضعوه من أعلى قائمة النعوت الإستعمارية التي استطالت قائمتها أكثر من ذي قبل في عهد الإحتلال الفرنسي للمنطقة . وأما التفسير العربي «بر» «بَرْ» فنصنفه في عداد الأساطير ، أو في عداد الحكاية الخرافية الشعبية التي لا تصمد أمام الفحص الدقيق الذي يبرر التسمية هذه ويجعلها مقبولة لدينا ، ولعل أول اعتراض يواجه هذا الإسم ، أو هذه التسمية نجده ممثلا في السؤال هو : كيف كان السكان يسمون قبل هذه العاصفة . أو هذه الحادثة التي أجبرت هذا الأب أو هذا القائد على دعوة جماعته للهروب الى الشاطىء وأبعد من ذلك هل كان السكان ينطقون العربية قبل الفتح الإسلامي ؟ . ومن البديهي أن يكون الجواب لا ، وأن يكون مع ذلك هذا التعليل مقبولا عندنا ، أو تكون الأسطورة «بر» «بر» مقبولة محترمة عندنا أكثر من التسمية اليونانية أو الرومانية ، بل إننا لو لم نجد اسم «مازيغ» أو «أمازيغن» لرجحنا الأسطورة العربية عن التسمية اليونانية الرومانية لأسباب وأعتبارات أخلاقية ونفسية وعلمية في الوقت ذاته لكون الأسطورة والحكاية الشعبية الخرافية وغيرهما كانتا في فترة من الزمن منبع الحقيقة العلمية التي تطمئن اليها لأن الشعوب في عصورها الأولى أعتمدتها للتعبير عن مشاعرها وأحساسيها ، كما أودعتها عاداتها وتقاليدها وقضاياها الفكرية والسياسية والاقتصادية .

وإذن فالنهاية أن اسم «مازيغ» أو «أمازيغن» الذي يقال أن السكان تسموا به من تلقاء أنفسهم يظل محددًا للمواطنين الذين سكنوا هذه المنطقة ويظل يدفعنا بإلحاح إلى معرفة أصل هؤلاء الذين سموا أنفسهم «أمازيغن» ، والذين حاول بعض الغربيين على ضوء المعطيات الجديدة

والذي يؤسف له أن نجد بعض الكتابات العربية القديمة تلمس بطريقة أو بأخرى لهذا المعنى ، وتحاول استثارة مشاعر المواطنين في المنطقة في استعمال العبارة بمعناها اليوناني والروماني فقال الشاعر في ذلك

رأيت آدم في نومي فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا
إن البرابرة نسل منك، قال: إذا حواء طالق إن كان الذي زعموا

والبيتان ينسبان الى الشاعر الأندلسي فرج السميسر ، أنظر ذلك في «الإستقصاء بأخبار دول المغرب الأقصى» لصاحبه أبو العباس أحمد ، جـ/1 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1954.

أن يعطوا لنا أصول إنحدارهم معتمدين في ذلك على أوصاف السكان بحسب توزعهم في مناطق المغرب ، لكن هذه الأبحاث إن حددت لنا عنصرين أساسيين يستمد منهما البربري أصوله ، وهما : «إنسان مشتى العربي» و«انسان ما قبل المتوسطي» . فإن المحاولات الأخرى إنطبق عليها حقيقة قول «أندري جوليان» : «وهذا البحث في الأصناف الغالبة ما زال في بدايته . وسيكون ثمرة المستقبل ، إذ أن مقارنة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري : هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمي ، وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقوم بعمل غير تضمين النتائج الحاصلة التي تدل على تجزء بلاد البربر من حيث أجناسها . إلا أنه – ما إن يتيسر لنا معرفة البربري الذي يمكن تسميته بحق : المغربي – حتى يبدو صنفًا اجتماعيا له خصائصه الواضحة . وبقدر حرصنا على طرافة البربري نتمكن من ابراز ضرب من الوحدة لتاريخ البربر»(1) .

وقبل أن نصل الى توزع السكان على المنطقة المعنية عندنا ، نسوق بعض الطرائف التي وردت في الكتابات العربية القديمة عن اسم البربر ، وبعض خصائصهم ، كما سننقل بعض الأشعار المرتكز عليها -عربيا- في ربط أصل البربري بالأصل العربي المنحدر من المشرق . ومنها روايتهم عن فريقش الذي قال عنه الإمام «ابن حزم» «هو فريقش بن قيس بن صيفة أخو الحارث الرائش منهم ، وهو الذي ذهب بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت البربر اليها من أرض كنعان ويقال إنه الذي سمى

(1) جوليان – تاريخ افريقيا الشمالية . ص : 70 . والصفحات التي قبلها.

البربر بهذا الاسم لأنه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قال : ما أكثر بربرتهم ! فسموا البربر . والبربرة في اللغة اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الأسد ، وينسبون اليه في ذلك شعرا وهو قوله :

بُربَرت كنعان لما سقتها   من بلاد الضنك للخصب العجيب
أي أرض سكنوها ولقد   فازت البربر بالعيش الخصيب

ولما قفل فريقش من غزو المغرب ترك هنا لك حامية من قبائل حمير صنهَاجة وكتامة فهما بها الى الآن وليسوا من نسب البربر قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهلي وجميع النسابين من العرب .

وقال ابو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : اختلف الناس في نسب البربر اختلافا كثيرا «كذا» ، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام وأنه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيا وراء برقة الى البحر الأخضر مع بحر الأندلس الى منقطع الرمل متصلين بالسودان وقيل إن البربر صنفا من البرانس والبتر أن البتر من بربن قيس بن عيلان بن مضر ، واختلفوا في توجيه ذلك فقال الطبري : خرج بربن قيس بن عيلان ينشد ضالة له باحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له ... الخ» .

والحقيقة أن هذه الرويات كلها تبدو متضاربة متداخلة حتى لا تستطيع الاهتداء الى جذور إحداها كما ينبغي على الأقل ، ولعل القاسم المشترك المؤكد بين هذه الرويات كلها هو انها لم تعرف أصل الإنسان الأول الذي سكن هذه المنطقة، مما جعلها تنطق أحيانا من فريقش، ثم يقول إنه

لما سمع حديث البربر سماهم بهذا الإسم ، ومعنى ذلك أن السكان كانوا موجودين قبله ، أو تنطلق من قبط بن حام أو من ولده ، وهذا يعني أنهم من الشام وليسوا من مصر كما تروي الروايات الأخرى - مما يبقى السؤال المطروح عن أصول هؤلاء باقيا معنا دائما ، ويجعلنا نقفز بقية الروايات العربية الأخرى ، وبخاصة منها تلك التي تعطينا قصة ، أو حكاية عاطفية أشبه ما تكون بهذه التي تملأ المسلسلات المصرية ، والتي نضعها في عداد ابتكار الخيال الشعبي من المشرق أو من المغرب أو منهما معًا لحبك صلة القربى بين السكان حبكا دقيقا ، وبخاصة إذا عرفنا استفحال النزعة العرقية في العهد الأموي ، والتي ضربت عرض الحائط اساس الدولة الاسلامية القائم على قوله تعالى :﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾(الحجرات:113) . وتخطت مجمل الأثر النبوي الشريف : ﴿**الناس سواسية كأسنان المشط كلكم لآدام وآدم من تراب لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى**﴾ .

وإذا رجحنا طرفا عن آخر ، وكان لنا أن نقول رأينا في أصل هذه الروايات ، فإننا نرجح الابتكار الشعبي المشرقي على الابتكار المغربي لوجود أشعار ترافق الروايات السابقة وتتخذها أساس رؤيتها . والسكان الأصليون هنا في تلك الفترة لا يعرفون العربية ، ولا يقولون بها شيئا ، وهذه بعض هذه الأشعار:

لتبك كل باكية أخاها   كما أبكى على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى   ودون لقائه أنضاء عِنِس

وهما البيتان اللذان يلخصان لنا هجرة «بر» من الشام الى المغرب فارًّا بحبيبته وزوجته كما تقول الحكاية التي سبقت الإشارة اليها .

ثم أيضا قولهم :

وشطت ببر داره عن بلادنا　　وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية　　وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبر لم نقف بجيادنا　　بذجرٍ ولم نقسم نهابا ومغنما

فبر من الحجاز - كما تقول الأبيات - وكان غازيا فارسا ناهبا غانما ثم يمم بعدا ، وأتى غربة، ففقد اللسان ، وأمسى مرغوبا في عودته لإحياء الأيام التي عاشها مع المتحدث . وهذا لا يزيدنا غير تأكيد وجود أناس سبقوا هذه الهجرات كلها التي تحدثت عنها هذه الروايات من جهة وتقول لنا من جهة أخرى أن السكان قد اختلطوا قبل الفتح بشكل يصعب فيه تحديد البربري المتحدث عنه والعربي المهاجر اليه . واليوناني ، والروماني ، والوندالي ، والبزنطي المحتلون المستعمرون إياه في فترات متتالية تختلف عن بعضها البعض في الطول والقصر . أي ان المنطقة كانت جزيرة لتياري المد والجزر وأن التيارين كلما تمكنا من الهدوء وتم اتحاد بينهما بشكل أو بآخر . وبنسب يصعب ضبطهما . فإذا عادت العواصف عاد التياران معا حتى جاء الفتح الإسلامي الذي أدمج التيارين في بعضهما بأسلوب أو بآخر كما سيأتي في أوانه .

ومما ينسب الى علماء البربر قولهم أن أحدهم أنشد عبيدة بن قيس العقيلي[1] :

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا　　توقف هداك الله سبيل الأطايب

(1) هكذا وردت الجملة أو التعبير : «ومما ينسب إلى علماء البربر ... بينما الأبيات تؤدي معنى مما ينسب إلى علماء العرب بحسب المعنى المحدد من السياق . ولعل خطأ يرجع في الطبع لا إلى الكاتب . كما يبدو ذلك في الأبيات الشعرية . وعلى الأخص في عبارة : «... وبربر إخوة» التي لا تصدر إلا عن عربي بالقطع.

أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى　　له حومة تشفي غيل المحارب
وبر بن قيس عصبة مضرية　　وفي الفرع من أحسابها والذوائب
فنحن وهم ركن منيع واخوة　　على رغم أعداء لئام المناقب

ويمكن أن نلاحظ -مرة أخرى- اتفاق الأبيات مع سابقتها في محاولة تأكيد أصل البربر المبنى على الروايات التي تربطه بالأصل المضري العربي ، والجديد هنا هو في الاشارة الى مناعة مرابع القومين معا ، وإلى تأكيد وحدة المصير كما يقول ، والتي لا تصان ، ولا تظل قائمة إلا إذا تآخى هؤلاء . ووقفوا وقفة رجل واحد كما في البيت الأخير

أما يزيد بن خالد فينسب اليه مدح البربر في الأبيات التالية :

أيها السائل عنا أصلنا　　قيس عيلان ، بنو الغر الأول
نحن ما نحن بنو بر الندى　　طارد الأزمة نحار الابل
قد بنى المجد فأورى　　وكفانا نأكل خطب ذي جلل
إن قيسا يعتزي برله　　ولبر يعتزي قيس الأجل
فلنا الفخر بقيس إنه　　جدنا الأكبر فكاك الاكبل
إن قيسا قيس عيلان هم　　معدن الخير على الخير دلل
خسبي البربر قومي أنهم　　ملكوا الأرض بأطراف الأسل

ومما ورد في هجاء البربر قال فرج السميسر من شعراء الأندلس :

رأيت آدم في نومي فقلت له　　أبا البرية إن الناس قد حكموا
إن البرابر نسل منك ، قال : إذًا　　حواء طالق إن كان الذي زعموا

وبعد هذه الأشعار نجد صاحب كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، يقول : « واعلم إن الخلاف في نسب البربر طويل وقد

تركنا جله اختصارا ، وأشبه هذه الأقوال بالصحة ما نقلناه أولا –«يعني أن البرابر جيل قديم سكن أرض افريقية منذ أحقاب طويلة» مما يدل على أن جيل البربرمن ولد حام وأنهم جيل قديم قد سكنوا المغرب ، عندما تناسلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليقة على وجه الأرض ، ثم تلاحقت بهم بقية بني كنعان من الشام عنده جلاهم يوشع بن نوح عليه السلام أولا ثم داود عليه السلام ثانيا .

قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه : والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان ابن حام بن نوح عليه السلام وأن اسم ابيهم مازيغ»(1) .

ثم يصف لنا البربر فيقول :

«.. فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها . ولهم الفخر الذي لا يجهل ، والذكر الذي لا يهمل ، وقد تعددت فيهم الدول ، وكثرت فيهم الملوك العظام ، وكان لهم القدم الراسخ في الاسلام ، واليد البيضاء في الجهاد ، ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء وأهل المزايا والفضائل ..»(2)

---

1) أبو العباس . أحمد بن خالد الناصري – الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى جـ/1 . تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر . ومحمد – دار الكتاب – الدار البيضاء 1954، ص/56 – 57 وما بعدهما .

(2) المرجع السابق ، ص : 57 وما بعدها.

والذي نستخلصه من هذه الروايات كلها ، وهذه الأراء ، هو أن البحث في العلاقة بين البربر وبين العرب أو بين المشرق أو بين المغرب العربيين كما نسميها اليوم قديم قدم الدراسات ، وطريف طرافة ما قدمته الدراسات القديمة ، والذي يبدو لي هو أن الظروف السياسية التي تعيشها المنطقة ، والاتجاهات التي تتبناها أو المسالك التي تسلكها هي التي أوجدت مثل هذه التخمينات ، والتكهنات ودعت الى النبش والبحث في كل الأزمنة عن هذه العلاقة .

ولعل ما عرفناه في العصر الحديث من القطيعة بيننا وبين المشرق أيام الاحتلال ، إن هو إلا صورة لما كان قائما بيننا وبينهم منذ القديم ، هذا المشرق الذي يتنكرللمغرب بخلاف المغرب الذي يتطلع اليه دائما فيأخذ ثقافته ، ويتبنى مواقفه ، ويعد نفسه جزءا في كل ، هو المشرق ، إذ أن يمني أو سعودي أو شامي ، من أن لأنينه . وتألم لجراحه ، وتفاعل مع همومه .

وهذا الإلتحام التلقائي بالمشرق الذي يحافظ عليه المغربي ، ويرفض أي خرقة ستحدث فيه إن هو إلا نابع من أحساس عميق وموروث دليل قربى قديمة في اعتقادنا – بين سكان المشرق والمغرب . لذلك كانت الأشعار السابقة التي لا يعنينا قائلها من يكون من المشرق أو من المغرب ، كانت مؤكدة لهذا الاحساس ، مفصحة عن صلة القربى كانت حقيقية منذ القديم ، أو متطورة مع الأيام بحكم التازج الذي لم يترك أسرة واحدة لم يمسها بعد الفتح الإسلامي الى اليوم .

ومهما كان الأمر فان بحث هذا الموضوع -مع قدمه- نرى أن ظهوره لجدة ؛ إنما يكون ناجما عن سياسة معينة في مختلف المراحل ، وخير دليل على ذلك ، هذه الجبال الحطبية التي هيأها الاستعمار ، وأوقد فيها نار الفتنة بين «الاخوان الأشقاء» عشية عجزه على البقاء في الجزائر وأن رحيله عنها ؛ حيث حاول إغراقها في برك من الدم الزكي الطاهر الذي أوكل مهمة إراقته الى أبناء الوطن الواحد ، في ظروف هم في أمس الحاجة الى حقن هذا الدم ، وتسخيره للبناء والتشييد . كما حاول حرقهم بالظغائن والأحقاد التي وفرها في الجبال الحطبية طوال فترات متعددة مختلفة آخرها فترة الاحتلال الحديث ، عن طريق العرقية ، والعصبية ، والقبلية -ولاشك- أن هذا يعني بالضرورة أن أي نزعة من النزعات التي تتبنى هذا الأسلوب في تناول سكان الجزائر اليوم ، سواء ربطتهم صلة القربى المتمثلة في جدهم الاعلى منذ القديم ، أم لم تربطهم ، وكانت هذه الرابطة من صنع القرون الرابعة عشر قرنا التي مرت على الفتح الاسلامي ، إنما تكون مبنية ، ويكون انطلاقها مبنيا على أحكام مسبقة ، وأغراض مقصودة ، وأهداف معينة ، لأنه من المستحيل - ومهما كانت نوع الدراسات- أن تصل اليوم الى تحديد من هو البربري ، ومن هو العربي ، إلا إذا ظهرت نبوة جديدة ، وألهم صاحبها البت في هذه القضية ، وذلك مستحيل ، كما نعرف ، وسيظل قول الله سبحانه وتعالى محققا في هذه الديار مهما كانت الحال ، وهو :

﴿**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾(الأنفال : 30) .

أما إن وردنا قول كلمة بخصوص هذه الأشعار فاننا نطمئن الى أنها

وضعت لغرض ، أو لأغراض سياسية ، قد تكون الثورات ، والإختلافات التي عرفتها المنطقة في أيام الصراع العربي ، وتكوين الدويلات هي التي استوجبت صنعها لكسب العنصر البربري ، أو المواطن الأصلي الذي -ربما- كان يتفرج على هذه الأحداث ، وبالأخص حين تكون ذات غرض نفعي يتمثل في الوصول الى السلطة ، أو في تحقيق مأرب من المآرب .

وما يدل على هذه الحقيقة ، ويؤكدها ، مستوى هذه الأشعار نفسها التي نظن ؛ بل نكاد نبلغ حد الجزم أنها صدرت عن سياسيين ، أو قواد ، وقالوها تحت ظروف معينة كالتي ألمحنا اليها منذ حين ، بيد أن الفتن التي تحدث عن وقوعها التاريخ في هذه المنطقة تعطينا تأكيدا أكثر على ذلك ، ومنها ثورات البربر التي كانوا يجبرون على إعلانها وخضوضها كلما استقر الأمر بالولاة ، وفرقوا بين السكان الأصليين وبين الوافدين في المعاملات والأحكام بخلاف ما يوصي الاسلام بذلك ، مما يلزم هؤلاء الحكام ، أو الولاة لاستماتة البربر ، ومهادنتهم بأسلوب أو بآخر ، والذي يندهش له المرء ، أننا ما زلنا في جامعاتنا نرى هذه النزاعات ، ونعيشها بين طلابنا مما يحز في الفؤاد ، ويسأل المرء ويتساءل مخلصا إن كان الطالب الجزائري الذي نظنه أوعى من غيره ، وأدرك من أي كان في حاجة الى إثارة مثل هذه القضايا ، ونسأل ، ونتساءل كذلك إن كان أي من هؤلاء يعرف عرقه منذ تكوينه عبر هذه الأزمان والعصور الى اليوم والأغرب من ذلك حين يكون الطالب الذي على هذا المستوى ، ويأخذ في غمار البحث العلمي المقدس الذي يعد الحقيقة العلمية قبلته ولكنه يتجاوزها ، أو

هذه اللغة اسم تمازيغت . وكان لها كتابة ومن أوضح الأدلة على وجودها حينئذ ذلك الخط الذي عثر عليه في مختلف الجهات الشديد الشبه بخط التوارق . وكانت حروف اللغة البربرية تمثل رسوما ، وكان الخط البربري يتركب من عشرة أحرف يسمونها تيفناغ أي الحروف المنزلة بخلاف من عند الله وأما الأشكال فهي خمسة ويسمونها «تيسد باكير» أي الدليل على العمل والتوسع ، وهي بخلاف تيفناغ من وضع البشر ، وهذا الخط على قول «فوكولد» يستحيل تدوين الكتب به ، ولم يبق له أي اثر في افريقية الشمالية سوى بالصحراء عند التوارق .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الخط البربري حديث العهد يرجع اختراعه الى «مسينيسا» في القرن الثالث قبل الميلاد ووضعه على نمط الحروف الهجائية الفنيقية ، وما يدفعنا الى تأييد هذه النظرية ان مسينيسا كان يعمل ما في وسعه ، لئلا تكون دولته متخلفة بالنسب الى قرطاجة وروما وغير ها من البلدان ، يحدثنا عنه التاريخ أنه كان حريصا على تنمية شخصية رعيته وتدعيم استقلالها اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا»(1) .

ويرى «شكري فيصل» بعد عرض لأنواع اللغات الموجودة في المنطقة . والتي يراها ثلاثا : اليونانية التي كانت هي اللغة الرسمية السائدة في الادراة ، وفي غيرها في ولاية «بيزنطة» ولغة سكان المدن التي هي عبارة عن خليط من اللغات اليونانية واللاتينية والفنيقية . ثم لغة السكان الأصليين التي قال عنها :

1) محمد الطمار – تاريخ الأدب الجزائري – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر ص / 8 – 9 .

«... اللغة البربرية التي تخالطها اليونانية في السواحل أو قريبا منها ولم تقض عليها من تأثيرها فقد كانت دون هذه اللغات حظا من الاتساع والغنى ... كانت لغة فقيرة لا تكاد تعدو حياة البربر اليومية الضيقة الى شيء وراءها من الثقافة والفكر»(1) ويعني هذا أن لغة البربر قبل الفتح الإسلامي ليست ذات شهرة فهي ضيقة محصورة في أماكن محدودة يتحدث بها سكان معنيون في جهات معينة وهي فوق ذلك ليست موحدة شأن اللهجات العربية في المشرق ، ومن ثم فإن هذه الخصوصيات التي ميزتها جعلتها محاصرة حتى من أهلها القاطنين في المدن ، ولا شك أن لغة هذا شأنها سوف لا تنمو ولا تتطور . ومن ثم يمكن لها أن تختفي في أي وقت، بل ان هذا التخوف نفسه ربما هو الذي سجله الإنسان في تلك الفترة عنها لهذا اعتبرها لغة سماوية إلهية بقصد الحفاظ عليها ، أو ربما –جدتها– كما يرى البعض وفقرهاهنا اللذان جعل سكان المنطقة يقدسها هذا التقديس .

ولعلنا بعد ذلك لا نعد والصواب إذا قلنا أن هذه اللغة والى اليوم على الرغم من التمدن المشهور في عالم اليوم فإنها لا تزال على فقرها ، ولا يزال التباين بين لهجاتها يزداد الى يوم الناس هذا ويجعلنا نجزم أن الصيحات المتتالية التي تحاول إعطاءها مكانة بين مختلف اللغات والارتقاء بها الى لغة الأدب والفكر لا تمر بحال من الأحوال ، وما هي إلا دعوات مشبوهة لها أبعاد وأغراض من سيقول التاريخ عنها كلمته ، ويكشف عن نظريات متبنيها ، نقول هذا مطمئنين غاية الإطمئنان الى قولنا إعتمادا على أقوال المحققين المختصين في هذه القضية، ومنهم هذا

1) د/ شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، دار العلم للملايين بيروت ط/4 – 1978 ص / 180 وما بعدها .

الرأي ، يقول صاحبه : فإن المتتبع للحياة الأدبية والاجتماعية عند البربر لا يسعه إلا أن يعترف بعدم وجود آداب بربرية بالمعنى الصحيح ، ذلك لأن اللهجات البربرية على اختلافها سواء منها الشلحة أو الزناتية أو الزناقية أو المزابية وغيرها لا يتسع صدرها لقبول الأفكار العالية ولا يستطيع المتكلمون بها التعبير عن الحقائق العلمية الدقيقة .

نعم اهتم البربر نوعا ما بالأدب الديني ، فكتبوا فيه ما شاء لهم أن يكتبوا : ومن جملة مصنفاتهم في هذا الباب كتاب «حميم المفترى» وترجمة للقرآن الكريم في اللهجة البربرية من وضع المهدي بن تومرت ، لكن للبربر ولعا خاصا بفن الملاحم وهي كثيرة الشبه بتلك المقطوعات الأدبية التي كتبت في فرنسا أثناء القرون الوسطى والتي تعرف في الأدب الفرنسي «بأغاني الوقائع» CHANSONS DE GESTES ومن الملاحم البربرية الشهيرة قصيدة بالشلحة للصابي وهي ملحمة كتبها الصابي بالحروف العربية يحدثنا فيها كيف أن بعض الشباب قدرله أن ينزل الى الجحيم كي يبحث عن أبويه فيخلصهما من عذاب جهنم .

وهناك أنواع أخرى من الأدب البربري أعظم شهرة من التي سبقت الإشارة اليها كالحكايات والألغاز والأمثال على ألسنة الحيوانات وقد توراثتها القبائل البربرية خلفا عن سلف وأعارتها أهمية كبرى غير أن تلك الحكايات قليلة بالنسبة للحكايات والفكاهات العربية ، ذلك لأن اللغة البربرية صلبة ليست من الرقة والحلاوة بحيث تسمح لصاحبها بتنميق الحكايات وزخرفها ...

ومهما نسينا فلا ننسى «كذا» تلك الأغاني البربرية المنتشرة في البلاد الافريقية جميعا ، فهي من المقطوعات الغنائية الحلوة التي لا تكلف

فيها ولا تصنع ، تنبعث من أعماق الفؤاد معبرة عما يختلج في صدر المرأة والرجل على السواء من عواطف مختلفة رقيقة في كثير من الأحيان»[1] .

كما يقول في الغرض نفسه «رابح بونار»

«... لا شك أن قدماء البربر قد قالوا الأغاني ، وخطبوا في مختلف الظروف كالولائم والحروب، ولكنهم لم يسجلوا شيئا من ذلك فإن قلة حظ الكتابة عندهم واختلاف اللهجات لم يعينا أدبهم على الانتشار والوصول الينا حتى نحكم له أوعليه ؛ فالأدب الذي لا يعتمد إلا على الحفظ ولا تتسع دائرته حظه الزوال حتما»[2] .

من هذه الشواهد الطويلة التي سقناها أمكن الوصول الى نتيجتين رئيستين هما : لغة البربر وأدب البربر -كما قدمنا- فلغة البربر لم تتجاوز قبائل أهلها المعروفين قبل الاسلام ، وهي الى ذلك غير موحدة بين هذه القبائل ، ويبدو أن سكان المدن ينظرون إليها بازدراء واحتقار ، لهذا اختاروا لهم لغة خاصة هي مزيج من اللغات الثلاث السابقة الذكر .

وأما أدبهم فهو محدود كذلك لا يعدو بعض الآثار الشفوية التي تعرفها كل الشعوب في طفولتها ، لهذا لم يصلنا أدب وفير من الفترات السابقة ، كما لا يصل أدبهم اليوم الى الأجيال اللاحقة -ولا شك- .

1) محمد محي الدين المشرفي - افريقيا الشمالية في العصر القديم «ضاع الخلاف ، فلم نتمكن من اثبات بقية المعلومات عدا هذه التي نجدها في الصفحة الأخيرة . وهي رقم الرقابة من 258 - بتاريخ 22 جوان 1949 الرباط ، ص/29 - 32 ، والذي يلاحظ على صاحب هذا الرأي أنه لا يعلم ما ذهب اليه بذكر مراجع ، ولا بالإستشهاد بالنصوص ، مما يبقى كلامه خاضعا للأخذ والرد .

2) محمد الطمار - تاريخ الأدب الجزائري ص / 9 .

وفي اعتقادنا أن هذا يعني بالضرورة تمكين أي لغة وافدة صالحة من قلوب السكان وعقولهم واعتناقها بسرعة ويسرلكونها ملبية لحاجاتهم ومعبرة عن رغابتهم ، وهو الواقع الذي حدثنا به التاريخ عندما تحدث عن تعريب شمال افريقيا ...

أما ما ذهب اليه «محمود محي الدين المشرفي» -كما تقدم- من وجود ملاحم ، وأدب،والذي نقله «بونار» فظننا أنه،وإن كان هناك أدب موجود فعلا ، فقد كان أولى لهذا الباحث أن يثبت لنا منه نماذج حتى نقتدي بها ، وفي تقديرنا أن الأدب قد يكون موجودا ، لكن وضع لغة البربر المنعزلة في المناطق الداخلية ، وتجاوز الحضر لها وللغات الأخر - كما تقدم مع شكري فيصل - جعل أدب هذه اللغة متقوقعا عن نفسه لا يعدو والقبيلة ، كما لا يمتد عمره طويلا ما دام أدبا شفويا ، والأدب الشفوي من خصائصه أنه وظيفي بمعنى أنه يؤدي دوره في لحظة الحادثة، أو الواقعة ، أو القضية ، أو الحالة التي عبر عنها ، ثم يتوقف مع نهاية ما عبر عنه ليترك المجال أمام ما يتجدد في الحياة اليومية من أعمال. وقضايا ، وأحداث ، فضلا عن التأكيد على ذلك الوصف الذي وصفنا به هذه اللغة والذي يحمل في غلاظتها وصلابتها ، وفقرها ، وتعدد لهجاتها ، وانزوائها ، وتقهقرها الى الصحراء أخيرا لكون الصحراء ظلت عالما مجهولا عند الوافدين حتى الاستعمار الفرنسي نفسه لم يعط لها الاهتمام البالغ الذي أولاه للشمال لأنه كان يبحث عن حاجاته ، لا عن تعمير البلاد ، وتطوير حياة سكانها ، وحتى بعد اكتشافه البترول لم يهتم إلا به كمادة أولى تغذي اقتصاده ، وترفع من قيمته .

ولعل ما يتم الآن على هذا المستوى سيجعل الباحثين في يوم من

الأيام يقولون أن هذه اللغة ، أو اللهجات قد أختفت من الصحراء نفسها .

أما ما أثبته الأستاذ «علي دبوز»[1] -رحمه الله- من نصوص باللسان البربري المعزى الى اللهجة الميزابية ، فإنه -ومع أدائه للموضوع بهذه اللهجة- يثير مشكلة أخرى ، وهي أن كتابة هذه النصوص بالحرف العربي ، ونطق الحروف المتفاوت بين اللهجات البربرية لا يسمح باتقان قراءة هذه النصوص من قبل كل من يعرف لهجة من هذه اللهجات ، زيادة على كون الحرف الهجائي العربي الذي كتبت به هذه النصوص دل على أن هذه اللهجات ، أو اللغة لا تملك المنطوق أي الحرف الذي يخصها ، وذاك فقر آخر ، وعجز واضح يؤكد ما وصفت به قديما .

وتأتي أخيرا الدعوات التي تقول إنه بالإمكان تطوير هذه اللغة ، والوصول بها الى مصاف اللغات الإبداعية ، فنسأل عن جذور معجم هذه اللهجات ، أو هذه اللغة كم تبلغ مادته ، كما نسأل عن طرق وأساليب الإشتقاق الموجودة فيها حتى يمكن أن تولد منها مصطلحات وتعابير جديدة ترقى بها الى مصاف اللغات الحية ، وقطعا سيكون الجواب أنها لا قاعدة إشتقاقية لها ، وأن جذورها اللغوية قد لا تصل مائة مادة في بعض اللهجات ولنقل مجاراة منا للخطإ الف مادة ، فهل ذلك كافٍ للوصول بها الى مكانة تجعلها لغة ابداع ، وابتكار ، وعلم ، وثقافة ، وحضارة .

---

1) علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير - جـ/1 ، ط/1 مطبعة عيسى البابا وشركاه 1964م ، ص/54-57 ، ومن الأمثلة التي أوردها قول أحد شعرائهم :

الحـج يتـواتـا الفرضس   التزاليت غيني انسيبـاس
أزومي اتـوشـاس الجـدس   نلحقـاس ممـامـاس أذبـابـاس

ذلك كافٍ للوصول بها إلى مكانة تجعلها لغة ابداع وابتكار وعلم وثقافة وحضارة.

= ومنعناها بالعربية حسب دبوز :

الحج قدنسي فرضه   والصلاة كدنا نتركها
ورمضان قد أكلناه   وتعدينا على حرماته !

دبوز / ص / 57 .

ومن نص آخر نأخذ بيتين :

أرسولَ انْربّى أولنّغ   فدّ ينْتشْ يلاًّ يدْ بَرْ
د اوّا اتْشَفْعَدْ دَجْنَغ   آسْ غا شنْمْلاقَا الْمَحْشَرْ

ومعنى البيتين :

يارسول الله إن قلوبنا   قد مرضت وأدبرت عن دينك
داوِ قلوبنا واملأها بنورك   ياشفع فينا يوم نلقاك في المحشر يارسول الله

وواضح أن ماقدمناه بخصوص الإختلاف والتفاوت بين اللهجات البربرية وفقرها قد دلت عنها هذه الأبيات ، وبالتحديد نجد الباحث قد أضاف عبارة «رسول الله» في آخر البيت الأخير ، ولا وجود لها في النص البربري ، كما أن كلمة «داوّا» التي شدد واوها وكتبها بالألف في النهاية ، يمكن أن تكتب على صورة أخرى ، وهي أقرب إلى الصواب ، مما هي عليه عنده ، وهي «دَاوَى» ، وفي هذه الحالة أو حتى في الأولى تغدو الكلمة العربية ، وكلمات : «أرسول» ، «ربي» ، «يدير» «داوى» ، «تشفع»، «ملقى» ، «المحشر» ، كلها عربية ، فلم يبق من البيتين الأخيريتين غير 4 كلمات ، وهي لاتشكل حتى شطرا واحدا في البيتين .

النص في الموطن السابق نفسه . ص 58.

وحتى البيتان الأولان نجد أغلب عبارتيهما عربية ، وبالتحديد «الحج» «يتواتى» ، أي «يواتي» ، «الفرض» ، «نسيب» ، «الجـ....»، «نلحق» « ما ما» ، «با با» فلم يبق في البيتين غير «اتزاليت»، «غيني» ، «ازوهي» ، «اتواشاس» . أي أربع كلمات مرة أخرى .. ومثل هذا ينسحب على بقية النصوص في كتاب دبوز ، وفي غيره.

آلاف السنين – ربما – مرت عليها ولم تعطها أدنى حظ من النضج فكيف يمكن الآن – وفي لمح البصر أعطائها ما يحلم به الحالمون ؛ بل يفتري المفترون .

إن المجتمع الناضج الواعي ، المتحضر ، في تقديري يبحث عن الأفضل ، ويسعى الى عربة السباق الأولى في مجال الرقي والتقدم ، لا الى عربة المؤخرة التي لا تحمل غير البضائع غير المصنعة ، والتي قد تكون موادها خانقة وقد تكون سامة ، وقد تكون نارية ... وقد ... وقد ... والمجتمع الجزائري الذي يضحي بالحياة ، ويهب الروح من أجل التقدم والرقي ، والمثل ، لا نظنه أبدا مستعدا لركب العربة الأخيرة بحال من الأحول إلا إذا جعلها صالحة للركاب ، وأفرغها من هذه المواد وذلك لا يتأتى في كل الأحوال لهذا يصنع عربة أخرى في المقدمة بوسائل صهرت موادها أربعة عشر قرنا فتبدو أنيقة جميلة أخاذة فتهرب منها هذه المزاحمة لها التي لطخت وجهها بالمساحيق –ماكياج– مدة ثلاثين سنة ومائة وتترك الأخرى أرشيفا ، أو مغارة للذئاب تعوي ما شاء لها أن تعوي .

الفصل الثاني

السماء : العقيدة واللسان

الفتح الإسلامي للمنطقة

كثيرة هي الروايات التي تحدثت عن الفتح الإسلامي لمنطقة المغرب بالقياس الى بقية القضايا التي تهم المنطقة . لكنها مع ذلك تظل فائدة محدودة نظرا للوقت الذي بدأت فيه هذه الروايات الوصول الى أيدي المدونين من المؤرخين العرب ، ونظرا لفائدتها المحدودة كذلك ليست صادرة عن أقلام الفاتحين الذين ما رسوا معركة الفتح ميدانيا ، أو السكان الأصليين .

ومما يلاحظ في بداية الأمر أننا نجد ما قيل عن البربر بخصوص نسبهم وصلتهم بالعرب منذ الوهلة الأولى ، وما قيل عن الأخرى التي ظلت متفرقة حيادية يعزى كذلك الى تأكيد المقولة التي تحاول ربط أصول السكان بالمشرق العربي .

وإذا كنا قد تجاوزنا هذه القضية في النقطة الخاصة بأصول السكان. فإننا هنا نختار مرة أخرى من هذه المواقف غير الثابتة التي سجلت عند السكان ، ونختار في فترة الفتح ، والطرق التي تم بها ، لأنها لا تحدثنا عنها الكتابات القديمة بدقة ، كما تظل بعض المصادر التي تناولت الموضوع عبارة عن اثبات لمجموعة تصورات ، وتخمينات يحتمل وقوعها أو عدمه لأنها لم تستند الى مصادر دقيقة فيا أثبتته ، ولأنها كتبت بأقلام مشرقية ، وأصحاب هذه الأقلام بعيدون عن المنطقة .

باختصار ينبغي لنا أن نأخذ ما قيل عن الفتح لهذه الديار مأخذ الحذر الذي يتوقع المفاجأة بين الحين والآخر : سارة كانت أم مؤلمة ومن ثم فإن المرجع هو أن التفكير في فتح المنطقة كان في عهد الخليفة الثالث

عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وأن الفكرة يبدو أنطلاقها كان من مصر حيث يقال ان عمرو بن العاص كان أول من فكر في الموضوع وطرحه على الخليفة «عثمان» ، ومن ثم تنطلق السرايا الأولى التي بدأت تتولى وجهتها نحو المنطقة . وبذلك تبدأ الحملات التي ستتعدد ، وتعرف بما وصفها البعض بـ«المد» و«الجزر» الى أن صارت المنطقة اسلامية الى يوم الناس هذا .

هذه الحملات التي حاول القدماء تحديد القبائل التي شاركت فيها ، وخاصة التي خاضت غمار المعارك التي عاشتها المنطقة . فقد نقل لنا الدكتور «شكري فيصل» -رحمه الله- من الكتب القديمة المختلفة ما وصفه بالشذرات وعده مؤديا لتحديد بداية الفتح ، والفاتحين بنجاعة فيقول :

«حين تولى عبد الله بن عمر سعد بن أبي سرح أمر مصر بعث يستأذن عثمان في غزو افريقية . وقد عين عثمان بهذا الوجه الذي يوشك أن ينفتح للمسلمين والتشاور فيه ثم استقر رأيه على الاذن ، ويحدثنا ابن عبد الحكم أن ندب الناس لغزوها بعد المشهورة منه في ذلك فلما أجتمع اليه الناس أمر عليهم الحارث بن الحكم الى أن يقدموا على عبد الله بن سعد فيكون اليه .. ويذكر«المالكي» في رياض النفوس ، والنويري في نهاية الأدب كبار الصحابة ووجوه العرب «من الذين» شاركوا في هذه الغزوة من بني هاشم ، ومن بني تيم ، ومن بني عدي ، ومن بني أسد بن عبد العزى ، ، ومن بني سهم ، ومن بني أمية ، ومن بني زهرة ، ومن بني عامر بن لؤى ، ثم تذكر القبائل فتعد من جهينه ستمائة رجل، ومن أسلم ثلاثمائة رجل ، ومن مزينة ثمانمائة رجل ، ومن بني سليم

أربعمائة رجل ومن بني الديل ضمرة وعنها خمسائة رجل ، ومن عطفان، وأشجع وفزارة سبعمائة رجل ، ومن كعب بن عمرو أربعمائة رجل حتى أتوا مصر فجمع عبد الله بن سعد جيشا عرمرما ، وضمه اليه ، فبلغ عسكر المسلمين عشرين ألفا»[1] .

بهذا الجيش الذي تجمعت فيه العناصر والقبائل التي ذكرها القدماء توجه والي مصر «عبد الله بن سعد» الى افريقية -كما كانت تسمى- سنة 27هـ الموافق 648 فعبر مفاوز برقة وطرابلس الى تونس حتى استقر بسبيطلة المدينة الرومانية المشهورة ، والتي ما تزال الى اليوم ، والتي كان يتولى أمرها انذاك عامل الروم الذي يسمى «جرجير» ، المتمرد عن حكومة قرطاجنة البزنطية ، وبنزول الجيش العربي على عاصمته تأهب لمحاربته ، فخرج في مائة ألف من الروم ، والبربر ، فنصر الله المسلمين ، وقتل جرجير بضربة من سيف «عبد الله بن الزبير» وأسرت ابنته» ووجهت الى المدينة المنورة ، وفي ذلك ينقل الينا الرجازون هذه الأبيات :

يـــا ابنـــة جرجير تمشي عُقبتـــكْ
إن عليــك بـــالحجـــاز ربتـــك
لتحملن من قبـــــاء قربتـــك[2]

كما تأتي عينية أبي ذؤيب المشهورة ، والتي مطلعها :

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع[3]

---

1) نقلا من كتاب : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للدكتور شكري فيصل - دار العلم للملاين - بيروت ط/ 4 1978 ، ص/168-169 .
2) هذه الأبيات من الرجز ، يمكن العودة اليها في الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ/3 ، ص/91 وفي أماكن أخرى ، وفي محاضرات : محمود عبد الرحيم - مخطوط بمعهد الأداب - باتنة .
3) نفسه ، والمفضليات - تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام ، محمد هارون - دار المعارف مصر ، ط/4 ، والأغاني جـ/2 .

والتي ظنها -عبد الرحيم- أنها قيلت هنا في المنطقة بعده صاحبها من المجاهدين الذي شاركوا في الفتح والذي نشك في ذلك كثيرا ، لأن الروايات تضاربت كثيرا بشأن هذا الشاعر ، ووفاته وقبره .

لكن كل هذا لا يعني إكتمال الفتح ، كما لا يعني استقرار الفاتحين بعد في هذه الديار ، فنحن ما زلنا مع القطرة الأولى من السحابة الممطرة ، والخطوة الأولى على الطريق ، وبالتحديد نجد أن هذه المعركة التي استهدفت سبيطلة والتي انتهت بانهزام الروم والبربر أجبرت هؤلاء على مصالحة العرب ، وتمكينهم من مبلغ مالي يقدر اليوم بمليونين ونصف فرنك ذهبا ، عاد على أثرها العرب الى المشرق ، وهنا يتوقف الفتح ليترك المجال أمام الصراعات التي كانت تعيشها المنطقة المشرقية بعد استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه . فإذا تم مقتل الإمام علي رضي الله عنه ، أتى معاوية بن حديج سن 45هـ ليواصل الفتح ، فتم على يده هزم الروم ، والبربر بالموقعة التي تعرف «بالجم» بتونس ، ثم اتجه عبد الله بن الزبير الى سوسة ففتحها كما فتح عبد الملك بن مروان «حلوة ، وبنزرت» ، ثم يعود «ابن حديج لمصر ليأتي بعده «عقبة بن نافع» سنة 50هـ فأسس مدينة القيروان ، وبعد استقراره شرع في ملاحقة الروم والبربر ، ومطاردتهم الى أن دعي الى المشرق ، وأمر مكانه «أبو المهاجر دينار» الذي دخل افريقية سنة 55هـ ، فبعث سرية تحت قيادة «حنش الصناعاني» الى جزيرة شريك بتونس ففتحها ، وأسلم خلق كثير منهم الزعيم البربري «كسيلة» ، ولما مات معاوية ، وتولى الخلافة أبنه يزيد أعاد عقبة ثانية سنة 62هـ ، فتدارك أمر القيروان بعد أن تداعى نسبيا ، واستخلف عليها «زهير بن قيس البلوي» ، واتجه

بجنده الى الجهاد في بلاد المغرب فالتقى بجموع الروم والبربر ببغاي فنازلهم ، وانتصر عليهم ، ثم واصل زحفه فأتى «لمبيس» -تازولت- فقاومها أهلها مقاومة شديدة ، وبعد المد والجزر تمكن منها ، مارا بطبنة ، ثم تيهيرت «اللبؤة البربرية» كما كانت تسمى حتى أتى المحيط الأطلسي ، فأوثر عنه قوله بعد ما دفع حصانه الى داخل البحر : «والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضا يشرك فيها بالله لخضت اليها البحر حتى أنشر دينه»[1] . وبعد عودته الى القيروان ، وحين وصل الى تهودة بالزاب انقض عليه ولم يبق معه إلا ثلاثمائة رجل -كما يروى- فانقض عليه البربر والرومان ، فاستشهد هو وكل من معه بالمكان الذي يعرف به اليوم ، وكان ذلك سنة 64هـ الموافق 684م وعن ذلك قال ابن خلدون : «وأجداث أولئك الشهداء بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد ، وقد جعل على قبر عقبة أسنمة ثم جصص واتخذ عليه مسجد يعرف باسمه ، وهو في عادة المزارات ، ومظان البركة ، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذي «لا يبلغ أحد مدَّ أحدهم ، ولا نصيفه»[1] .

وباستشهاد عقبة وصحبه يسترجع كسيلة القيروان ، وتوجه «زهير بن قيس البلوي» الى برقة ، وظل الأمر على ذلك حتى خلافة «عبد الملك بن مروان» الذي حين بلغه ما حل بمسلمي افريقية أمر زهير بالسير الى القيروان وأنقاذها ، فأتاها 69هـ بجنوده فزحف على البربر ،

---

1) أنظر رابح بونار / المغرب العربي / تاريخه وثقافته ط/2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر 1981 ، ص/16 ، وانظر هذه الأحداث وقول عقبة كذلك في حسنى حسن عبد الوهاب / خلاصة تاريخ تونس / للدار التونسية للنشر 1983 ط/2 من ص/ 54 - 62 وستجد اختلافا في منطوق روايته بين المؤرخين والباحثين .

2) ابن خلدون / نقلا من حسني عبد الوهاب ص / 58 .

وبعد قتال عنيف مستميت قرب بلدة «ممس»[1] هلك كسيلة ومن معه ، واسترجع المسلمون مدينة القيروان ، ثم يغادر زهير المدينة مرة أخرى الى المشرق وبذلك أي بمغادرته هذه ، وتولي «حسن بن نعمان» قيادة الجيش الإسلامي وفتح افريقية تنطلق عملية الفتح الحقيقية ، حيث يأتي هذا القيروان ، ويتجه منها الى قرطاجنه التي لم تستهدفها الغزوات السابقة وبعد حصار طويل يتمكن منها ، لكنه بعد مغادرته إياها يعود الروم ، والبربر للتحصن منها ثانية ، فيضطر الى العودة اليها ، والى تحطيم قنوات المياه ، حتى يتكن منها ثانية بيسر و سهولة ، ولما تم له ذلك خرّبها حتى لا يتحصنوا بها ثانية ، ثم اتجه الى جبال الأوراس ليلتقي «داهيا بنت تابتت» التي سماها العرب بـ «الكاهنة»[2] وهي أميرة القوم ، مَن قبلية «جراوه» البربرية فالتقى بها في جبال الأوراس فهزمته شر هزيمة فمات خلق كثير من جنده مما أجبره على الانسحاب الى طرابلس في انتظار المدد من المشرق العربي ولما تم له ما أراد ، وأتاه المد عاد ثانية ينشد الكاهنة التي ظنت أن الفاتحين كالروم ، والبيزنطيين ينشدون المال ، والأرض ، ... فأشارت على القوم بتخريب العمران ، والحصن ، والأشجار ، لكن حسان لم يعبأ بذلك بل راح يقتفي أثرها حتى أتاها بقصر «الجم» ، أو «ببغاي» ، أو بما يعرف «ببئر الكاهنة» على أرجح الروايات . فهزم جيشها وقتلها ، وقيل أنتحرت وذلك سنة 84هـ الموافق 103م . وبانهزام الكاهنة دانت بلاد البربر

1) هذه مدينة سميت قديمة بـ«ممسا» كانت بالوسط التونسي تسمى اليوم «قصر لمسة» حسني ، حسني عبد الوهاب ، ص/60 .

2) سموها كذلك لأنها كانت تمارس السحر والشعوذة ، كما يقال .

للمسلمين وخضع أهلها ، وأذعنوا للفتح الإسلامي الذي استحسنوه لما عرفوا معناه ، ووعوا أبعاده ، وعلى الأخص حين عمد هذا القائد الى توزيع الأرض التي كانت في يد الرومان ، والبيزنطيين على الفلاحين البربر ، ثم انشاء صناعة السفن بتونس ، وتنظيم الخراج على الأرض وتدوين دواوين الدولة الافريقية وفرض اللغة العربية كلغة رسمية للدولة ، مما جعل السكان يقبلون على تعلمها بحثا عن الوظيفة ، وسعيا لفهم العقيدة الاسلامية التي جاءت بهذا اللسان العربي ...

ثم يأتي «موسى بن نصير» بعد حسانَ ليكمل فتح المناطق الباقية في تونس ويوطد الفتح في المغرب الأقصى وعين «طارق بن زياد» واليا على طنجة الذي أبقى معه عددا محدودا من العرب ليعلموا أهل المنطقة كتاب الله وبذلك صارت أفريقية مسلمة ، وصارت أول مؤسسة تعليمية أنشأت فيها هي الكتاب لتعليم كتاب الله الذي هو أساس اللغة العربية ودستور العقيدة الإسلامية التي انتمى اليها السكان[1] ، الذين سينطلقون بعد سبع سنوات -فقط- من الفتح المؤز للمنطقة تحت قيادة المجاهد الجزائري «طارق بن زياد» لفتح الأندلس الجزيرة الرائعة التي نسميها اليوم بالفردوس المفقود أو المسروق من الإسلام والمسلمين وتلك مشيئة الله يقررها الشاعر الأندلسي أبو البقاء في نوريته الرائعة عشية سقوطها والتي مطلعها ..

1) عن هذا قال الطمار : «والكتاب أسبق أنواع المعاهد العلمية وجودا في العالم الإسلامي ، يتعلم فيها الصبيان القرآن الكريم ومباديء القراءة والكتابة وبدأ تأسيسه في النصف الأول من القرن الأول ، وكان عبارة عن خيمة تضرب مع خيام الجيش إذ كان الجند يصحب معه خطباءه وشعراءه ومعلميه . وكان الولاة يأتون من الجزيرة العربية مصحوبين بأدباء لإنشاء الرسائل وتعليم الناس الدين والفقه والأدب . فللولاة يرجع الفضل في نشر مباديء الإسلام وتوطيد دعائم العروبة والاسلام / تاريخ الأدب الجزائري / ص/19 ش.و.ن.ت -الجزائر بدون تاريخ.

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

وجهة نظرنا في أحداث الفتح ووقائعه :

من خلال شريط الأحداث السابق الذي تم عن طريقه الفتح الإسلامي للمغرب العربي الحالي ، أو أفريقية كما كانت تسمى قديما تجلت لنا حقائق تكاد تكون أكيدة ، وبتجليها هذا نستطيع أن نرد كثيرا من الأقاويل التي روج لها بخصوص صلة المغرب بالمشرق قبل الفتح الاسلامي .

ذلك لأن عدم استقبال السكان الأصليين للفتح منذ الوهلة الأولى ، وعدم استقرار الفاتحين في مراحل الفتح الأولى ايضا بالمنطقة ، له ما يبرره من جهة ويكشف لنا عن ابعاد أهملت ، أو تهمل عن حسن نية ، أو عن قصد مبيت ، من جهة اخرى فالدعاوى التي يذهب فيها أصحابها الى التحدث عن الوفد البربري الذي اتجه الى -عمر بن الخطاب- رضي الله عنه ينشد الاسلام والايمان لايبقى ما يدعمه أمام هذا العنت الذي عشناه من خلال الغزوات التي قام بها الفاتحون ، إذ تأكد لنا أن السكان لا يعرفون الاسلام ، ولم يسمعوا عنه الكثير ، أو القليل .. فكيف يعقل أن تكون المقاومة الشديدة للفاتحين من قبل السكان ، ويكون وفد موجه الى المدينة المنورة يبحث عن الاسلام ، ويستفسر عما يتعلق به ، كذلك الامر بالنسبة للراي الذي يذهب فيه أصحابه الى كون «الكاهنة» وقومها لايعرفون شيئا عن الاسلام ، والمسلمين لهذا لجأوا الى تخريب العمران ، والأشجار ، والمزارع ... لا نجد ما يدعمه ، وعلى الأخص ، ونحن نعلم أن موقف الكاهنة -هذا- تم بعد أن دام الاسلام في تونس زمنا ، وبعد أن عرفه «كسيلة» أي الاسلام ، وكسيلة على صلة بالكاهنة

وبعد أن عبر عقبة في غزوته الثانية الجزائر من شرقها الى غربها مما يجعلنا نعتقد أن الكاهنة وقومها في محاربتهم للإسلام والمسلمين إنما قصدوا الى ذلك قصدا ، وربما ما يثار بشأن كسيلة الزعيم البربري ، وعقبة القائد الفاتح له دور في هذا النفور الذي يتأكد أكثر بعد هذه الحادثة عند السكان من المسلمين مع كسيلة الذي ثأر وانتقم لنفسه ومع الكاهنة التي كانت تتوقع المصير نفسه إذا ما تم الفتح ووقعت في يد العرب .

وكل ذلك يؤدينا الى استنتاجات أخرى نراها مهمة جدا منها أن العلاقة بين المشرق وبين المغرب كانت معدومة . ومنها أن الدعاية الرومانية أستطاعت أن تكسب البرابرة ، وأن تجعلهم أيادي لها على العرب الفاتحين ، المسلمين ، ومنها إذا صح أن عقبة أهان كسيلة بدعوى مخالفة الإسلام في بعض القضايا كهذه التي تسجل على عقبة ، إذ المعروف عن الإسلام أنه يبقى أعيان القوم على ما هم عليه إذا أعلنوا الاسلام ، وتولوا أمر نشره ، وتبليغه ، كما حدث مع أشخاص عديدين وفي أماكن كثيرة .

ومنها أن عنصر اللغة أو أن اللسان المفقود بين السكان الأصليين والفاتحين ، والذي يكشف عن قصد الفاتح ويوضح تعاليم الاسلام ومعانيه ، صعب استيعاب الفهم على السكان مما جعلهم يقفون منهم هذا الموقف ، ويظنونه كأي نظام وضعي أخر كالنظم التي حملتها لهم أقوام سبقت الفاتحين ومنها -أخيرا- وهذا مهم جدا- أن العرب لم يكونوا يفكرون تفكيرا جديا في فتح المنطقة ، وهذا ما جعل حملتهم في البداية تتسم بالعبور أي بأخذ الغنائم وتأمين الحدود،وإلا بماذا يفسر عودتهم

بعد فتحهم «سبيطلة» الى المشرق ، ثم عودة من تلا هذه الغزوة كذلك ، معنى هذا أنهم كانوا يؤمنون حدودهم الغربية بتابعتهم قدوم الروم الهاربين حتى تبينت لهم المنطقة ، وعرفوا خطرها فوجدوا أن لا فرار من فتحها وكسر شوكة الروم البزنطيين الذين كانوا يجددون قوتهم بين حين وأخر ، وتحين كل الفرص لا سترجاع ما ضاع منهم في المشرق العربي ، فكانت هذه المتابعة من المسلمين لهؤلاء نقمة لهم ، ونعمة علينا، نقمة لهم بالقضاء عليهم ، ونعمة لنا بتمكيننا من هذه العقيدة السمحة الفذة التي عرفتنا أنفسنا حق المعرفة ، وحددت لنا معنى وجودنا ، ودورنا في هذه الحياة ·

تعريب السكان

تسكت الدراسات التي فحصناها عن تعريب سكان المنطقة ، كما سكتت عن كثير من القضايا الأخرى التي تقدمت ولا نجد التعليل النهائي لها في كل الأحوال – لهذه الظاهرة التي تسود كل ما يتعلق بالمغرب الاسلامي في هذه الفترة على الرغم من محاولة بعض المعاصرين الجادين الوصول الى معرفة كل ما يتعلق بالفتح وباللغة العربية في هذه الديار

وإذا كان الفتح نجد له بعض الأشعة الباهتة التي تحاول الإنبعاث بين الحين والآخر من هذا المصدر أو ذاك . وكان الأمر كذلك بالنسبة للسكان وأصولهم ، فإن تعريب سكان المنطقة يظل الحديث عنه شحيحا الى حد بعيد ، ولعل مرد ذلك الى الاقتناع الذي تم عند بعض الباحثين بخصوص أخوة البربر والعرب هذا الاقتناع الذي لا يجعل الحديث عن خطوات تعريب السكان مجديا ، الى جانب طبيعة الفتح التي ميزته بالتالي وجعلته ينتقل بسرعة الى الأندلس ، أي الى أوروبا وهذه الديار أو هذه المنطقة الغريبة عن العرب في كل شيء الفتت نظر الفاتحين اليها وجعلتهم يهتمون بالتجربة أكثر من أهتمامهم بما يجري في افريقية أو في المغرب الاسلامي ·

وسواء أخذنا بهذين السببين ، أو بغيرهما ، فإننا نظل ننتظر استقراء دقيقا للمصادر والمراجع القديمة التي تحدث أصحابها في الموضوع عسانا نظفر بالإجابة عن السؤالين :

1- كيف تعامل الفاتحون مع سكان المغرب ولسانهم عربي ، ولسان القوم بربري ؟ .

2- كيف تم التعريب بعد الفتح ، وكم استغرق تكوين الادارة الإسلامية باللسان العربي الذي يفهمه كل سكان المنطقة ؟ .

ومحاولة منا في الإجابة عن السؤالين اجابة نسبية سوف ننطلق من تعلاّت عبد العزيز نبوي التي يختم بها وجهة نظره عن تعريب سكان المنطقة حين يقول : «وإذا كانت الحركة الأدبية والعلمية يلفها الغموض في السنوات التالية للفتح الإسلامي والتي تصل الى قرن أو تزيد ، فمن الطبيعي أن يشمل هذا الغموض حركة التعريب التي تسبق ولا شك حركة التأليف أو النظم ، وإن كان من الطبيعي أن تنتشر في مدن المغرب الكتاتيب ودور العلم التي أقامها المعلمون في بيوتهم حيث يتعلم الناس القراءة والكتابة ويتصلون من خلالها بالثقافة العربية القديمة دينية وغير دينية»[1] .

هذا الإجمال لمجموعة معطيات معتبرة يمكن أن تكون مساهمة في تعريب السكان والتي حاول به صاحبه أن يحدد موقفه من هذه القضية متجاوزا لمن سبقه في الموضوع ، أو مستلها لآراء هؤلاء بطريقة أو بأخرى ، ويجعلنا نحن نعود الى السؤالين السابقين بمواجهة أكثر دقة وتحديدا واستيعاب ووضوح ، منطلقين من كتابات مركزة عميقة ، الأمر الذي يحملنا على العودة الى لغة السكان ثانية قبل الإسلام والتي رأينا مستواها وأشكالها وأنواعها ، لنسوق هذه المقولة التي يثبتها محمد

1)عبد العزيز نبوي/ محاضرات في الشعر المغربي القديم/ ديوان المطبوعات الجامعية/ الجزائر 1983

محي الدين المشرفي في كتابه «افريقية الشمالية في العصر القديم» والتي مؤداها : «... فإذا تذكرت أن البربر والقرطاجنيين من أرومة سامة ، يرجع أصلهم جميعا الى المشرق ، وثبت لديك -بناء على ما تقدم من البراهين التي لا تقبل الجدل أن القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية وأن لغتهم هي اللغة العربية - عرفت لماذا أقبلت الطبقات البربرية على تعلم اللسان القرطجني أقبالا عظيما وتبينت لك الأسباب التي ساعدت على انتشار العربية بسرعة كبيرة في بلاد المغرب بعد ما خضعت للمسلمين ، وهذا الذي حدا ببعض المؤرخين الى التصريح عما يلي عند تناوله الكلام على سرعة اضمحلال اللغة اللاتينية من أفريقية الشمالية فقال : « لعل السبب في انتشار اللغة العربية في المغرب بمثل هذه السرعة واضمحلال اللغة اللاتينية منها يرجع الى أن عددا عظيما من الأهالي في هذه البلاد كانوا يتخاطبون باللغة القرطاجنية ...»[1] .

وقبل هذا يسوق المؤلف لوحة متكونة من ثلاثة جداول يوازن و يقارن فيها بين القرطاجنية والعربية واللهجة العربية الحالية لينتهي من ذلك الى التأكيد على الأصل العربي للقرطاجنيين الذين تعد لغتهم منحدرة من العربية مع العلم بأن الجداول التي استشهد بها ، أخذها من لوحة حفرية قرطاجنية عثر عليها في البرازيل وهذه أمثلة من هذه اللوحة :

1) محمد محي الدين المشرقي / افريقيا الشمالية في العصر القديم / الرباط 1989 - ص / 49 ، وصفحات وأماكن أخرى في الكتاب نفسه .

الجملة الفنيقية	مقابلها بالعامي العربي في شمال افريقيا	و بالعربيـة الفصحى
1-ها أحنا بني كنعان م فرنم حقرة حمل	هنا حنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقره	هنـا نحن بني كنعان من فرانم تحملنـا الاحتقار .
2-أوش حر حصل هك	موش حرام نحصلوا هكا ؟	أليس حرام أن نحصل هكذا ؟
3-لا عنا أز يدحيا قتار	ما تزدادشي الحياة عندنا أكثر	لن تزيد الحياة عندنا أكثر
4-في حيرم أناس تا بحر	في الهم الناس متاع البحر	انا أناس البحر في الهم

معنى هذا أن الفاتحين - إذا صدقت هذه الرواية - قد وجدوا أناسا في المغرب عل صلة بالعربية عن طريق القرطاجنيـة التي أتى بهـا الفنيقيون الى هذه الديار ، وعن طريق بقايـا الفنيقيين أنفسهم الـذين بقـوا في قرطاج بعد سقوطهـا في يـد الرومـان أو غيرهم من الحملات المتعاقبة عليها المعروفة تاريخيا ، ومعناه أيضا أن الـدراسـات الحـديثـة التي تهتم بالموضوع لم يسلك أصحابها فيهـا أسلوب التكامل الـذي يضفي بـالبـاحث اللاحـق الى نتائج منظمـة معتبرة ؛ بل يمكن أن نعـدهـا اجتهـادت منطلقـة أحيانـا من الفراغ لغيـاب النص الـذي يلزم هؤلاء بـالعودة اليـه أو لعـدم بحثهم عن هـذا النص واختفـاء أثره في مـواطن عديدة ، والموازنة بينهـا عنـد تعددهـا للخروج في النهـايـة بحكم شـامل للأسباب المختلفة التي ساهمت ، أو ساعدت على تعريب سكان المنطقة .

ومن النصين السـابقين لـ «نبوي» ، و «محمد محي الـدين» أمكن لنـا القـول بـأن الإجـابـة عن السـؤال الأول كيف عرب سكان المغرب ،

نستطيع الحصول عليها من طبيعـة سكان المنطقـة أنفسهم ، الموجـودين قبـل الفتح الإسلامي ومن لغتهم المتداولة في مـا بينهم ومن الوسـائل الأخرى التي وفرها الفاتحون لتمكين اللغة العربية من الإنتشار في هذه الـديـار . ومن ثم نستطيع تلمس مختلف الخطأ التي قطعت في هـذا المجال، والتي مثلتها في جملتها العناصر المتقدمة ؛ بعبارة أخرى لقد وضح لنا الطريق بهذه المعطيات التي نستطيع عدهـا أوراق أعتمادنـا للـذهـاب بعيـدا وراء التحقيق في هذه القضيـة فنلتقي من جـديـد بسؤالينـا ، وقـد طرحهمـا «حسني عبد الوهـاب» في النص الآتي ، وأحـاول الإجـابـة عنهما في الآن نفسه : «كثيرا ممـا تسـاءلت كيف كان يتفـاهم الفـاتحون من العرب زمن غزوهم ، مع الافارقة ولا سيما مع البربر ومع بقايا الروم ، ومـا هي لغـة التخاطب التي كانت تدور بينهم ؟ ولم يفدنا الإخبـاريون عن شيء من ذلك ولو بأقل اشارة ؟ والذي خطر ببالي بعد البحث أن الواسطة بين العرب وبين الروم البيزنطيين هم : إمـا أفراد من عرب الشـام وفلسطين والحيرة ، وكان كثير منهم امتزجـوا بـالروم وتعلمـوا لغتهم واعتنقـوا دين النصرانية ثم إنهم بظهـور الإسـلام وتغلبـه على بـلادهم اسلمـوا والتحقـوا بإخوانهم العرب وشاركوهم في الحروب والغزوات .

وأمـا أفراد من قبـط مصر ، وكان فريـق كبير منهم يحسن اللسـان اليوناني ، ولا يفوتنا أن العرب أبقوا منهم في دواوين مصر جانبا عظيـا بصفـة موظفين وأعوان الخراج ، وفـوق ذلـك فـإن مصـالـح الحكـومـة العربية في بلاد الكنانة استعملت رسميا اللغة اليونانيـة من زمن الفتح الى آخر أيـام عبـد الملـك بن مروان ، كما تـدل عليـه أوراق البردي «البابيروس» المكتوبة باليونانيـة في العصر الاسلامي الأول وهي صـادرة

عن دواوين الحكومة المصرية ولدي وثيقة من هذا النوع من الأهمية التاريخية بمكان إذ أن تاريخها يرجع الى سنة 95هـ الموافق 714م أي في آخر ولاية موسى بن نصير الافريقية .

ويؤيد ما ذهبنا اليه من أن قبط مصر كان يوجد منهم في جيش الغزوات ما رواه ابن ناجي بالنقل عن الواقدي : أن عبد الله بن أبي سرح لما كان أمام مدينة «سبيطلة» وقبل محاربته لبطريق الروم «جرجير» كان معه رجل من قبط مصر ...».

كما يهمنا معرفة من كان يستعمل العرب وساطته للمخابرة مع رؤساء البرابرة وبأي لسان كان يقع التفاهم ؟ .

وقد عنى لي أنه كان يوجد ناحية ثانية بالبلاد المصرية يسكنها من قديم الزمان قوم من سلالة البربر . وهي ناحية الواحات المصرية ، منها «سبوه» وغيرها -وإن هؤلاء السكان حافظوا- ولا زالوا محافظين على تقاليدهم ، وعوائدهم ، ولغتهم البربرية ، وقد فتحهم العرب من أول انتصابهم بمصر ، فيجوز أن الفاتحين استصحبوا منهم أفرادا في جيوشهم المرسلة الى افريقية ، واتخذوا منهم تراجمة تسهيلا للمخابرة مع بني عمهم برابرة المغرب ، ريثما يعتنق برابرة افريقية الاسلام ويتعلم أبناؤهم لغة القرآن ويصيرون جزءا لا يتجزأ منهم » (1) ..

ولعل تأكدنا بات الآن أكثر من ذي قبل إذ تجلى لنا واضحا جانب الاجتهاد الملمح اليه في هذا النص الطويل ، والذي عد صاحبه ما ورد

1) حسني ، حسني عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية / القسم الأول مكتبة المنار / تونس 1972 / ط2 ، ص63-64 ، وينهي الكاتب الفقرات السابقة في المكان نفسه : وعسى أن تساعدنا النصوص البربرية يوما ما على فك هذا المشكل كما نأمل أن تكشف لنا عن كثير من المسائل التي تعرض من هنا نوع ويفسر حلها.

فيه خواطر لا أقل ولا أكثر على الرغم من اعطائه لنا تصورات وحقائق يمكن أن تكون ذات دور في المجال حقيقة ، ومنها الاختلاط الذي حصل بين الفاتحين والمصريين في المرحلة الأولى ثم الذي تم بين هؤلاء وسكان المغرب في المرحلة الثانية ، فضلا عن اجادة المصريين لليونانية والاحتفاظ بهم في دواوين الدولة الاسلامية في هذه الديار ، ووجود ورق البردى الذي يؤكد رسمية اللغة اليونانية ، في مصر ، وتعامل المسلمين معها في المرحلة الأولى من وجودهم هناك ، أي قبل تعريب دواوين الدولة كما أمر بذلك الخليفة الأموي (1) .

هذا جانب ، والجانب الآخر في القضية أيضا ، هو أننا لاحظنا الجزئية الغريبة -التي سبقت الاشارة اليها- بحيث لا نكاد نعثر بعد على دراسة حاولت شمل شتات هذه المعطيات -وغيرها- ومحاولة تقديم في عرض شامل ودراسة مستفيضة ، الأمر الذي جعلنا نلاحظ على أن هذه الدراسة -مرة أخرى- لا تستقرئ مختلف الآثار التي لها صلة بالموضوع .

وفي ظننا أن ما تقدم حتى الآن ما يزال يحتاج الى آراء أخرى حاولت أن تستكمل بعض الحلقات التي يشهد التاريخ أنها ذات دور عظيم في هذا المجال ، ومنها ما يحدثنا به عن الرحلة التي قام بها أفراد من سكان هذه الديار الى المدينة المنورة ، واستقبلوا من طرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، هذه الحادثة التي يسجلها لنا التاريخ ، وملخصها : «قدم عليه «عمرو» ستة نفر من البربر محلقين الرؤس «كذا»

1) وهذه اللغة أي اليونانية هي نفسها اللغة المتداولة في افريقية تونس ، وغير تونس كما تحدثنا بذلك هذه الكتب .

واللحى فقال لهم عمرو : من أنتم وما الذي جاء بكم ؟ قالوا رغبتنا في الاسلام فجئنا له لأن جدودنا قد أوصونا بذلك ! فوجههم عمرو الى عمر رضي الله عنه وكتب اليه يخبرهم ، فلما قدموا عليه – وهم لا يعرفون لسان العرب – كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من أنتم قالوا نحن بنو مازيغ ، فقال عمر لجلسائه هل سمعتم قط بهؤلاء ؟ فقال شيخ من قريش يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية ابن قيس بن عيلان ... فقال لهم عمر رضي الله عنه : ما علامتكم في بلادكم ؟ قالوا : نكرم الخيل ونهين النساء فقال لهم عمر : ألكم مدائن ؟ قالوا : لا ، قال : ألكم أعلام تهتدون بها ؟ قالوا : لا ... الخ»(1) .

هذا الوفد الذي إن صحت رحلته – يمكن عده من الرسل الأولى التي كانت مهيئة للتعريب الجنسي كما أسماه بعض الباحثين – والذي يعنينا أكثر من الخبر هو الجانب الذي أشير فيه الى وجود ترجمان ناقل لما يحدث به البربر وما يحدث به عمر رضي الله عنه في المدينة ، بينما لم يشر الى ذلك في مصر غداة استقبال الوفد من طرف عمرو بن العاص . وهي إضافة أخرى الى امكانية صدق خواطر «حسني حسن عبد الوهاب» السابقة من جهة والإلتقاء بعد ذلك بوجهة نظر «شكري فيصل» التي نعدها أدق ما اطلعنا عليه في هذا الموضوع ، حيث حاول الباحث استقصاء ما أمكن الظروف التي تم فيها التعريب . فهو ينطلق أساسا من خصائص اللغات الثلاثة التي أمعنا اليها فيا سبق فيرى أن هذه اللفات لا تستطيع الصمود أمام العربية لأنها لكي تكون كذلك

1) أبو العباس أحمد «شيخ» الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى تحقيق وتعليق ولديه جـ/1 ، دار الكتاب الدار البيضاء 1954 . ص/65–66 .

ينبغي لها أن توازي العربية في غناها وخصوبتها وتلك –كما نعرف– لا ترقى الى مستوى اللغة العربية في هذا الجانب ، فذلك يجعلها منذ البداية في موقف الضعف ، ثم يتحدث عن الوسائل الآخر التي تملكها كل لغة فوجد أن العربية الى جانب غناها أنها لغة الدين مما يكسبها عنصر القوة . ثم يلتفت الى البربرية فيجعلها في مستوى موقع العربية باعتبارها اللغة المحلية التي لايسلم فيها السكان بسهولة ومن ثم فإن البربرية يمكن لها أن تقاوم أكثر من اللغات الأخرى الموجودة في المنطقة ، وأن العربية يمكنها أن تحتضن لأنها لغة الدين قبل كل شيء ولأنها مثقلة بآثار الفنيقية لغة سامية ليس بينها وبين العربية تنافر حاد ، وقد كانت الفنيقية –كما سبق– متداولة في المجتمع القرطاجي وهذا يسهل تمكن العربية من قلوب السكان بيسر وسهولة . ولعل هذه السهولة نفسها هي التي جعلت متابعة عملية التعريب مرحلة مرحلة من الصعوبة بمكان .

وعن هذا فصل القول «شكري فيصل» في حديثه :

«وموقف هذه اللغات لا اللغة العربية وقدرتها على مقاومتها يجب أن يكون متناسبا مع غناها وخصوبتها ، غير أن المعركة لا تبدو معكرة مجردة ولا تخلو من أسلحة أخرى تتبادلها اللغات ... فأن تكون اللغة العربية لغة الدين فذلك يكسبها عنصرا من القوة ... وأن تكون البربرية اللغة المحلية القومية فذلك يهبها قدرا من المقاومة ويجعل شق الطريق اليها محوطا بالجرأة والقوة ... وأن تكون اليونانية كذلك لغة الإدارة والثقافة فذلك يتيح لها بعض حصانتها ... ولذلك كان الصراع

بين هذه اللغات وبين اللغة العربية كثير الأطراف متشابك النواحي»[1]

ثم يعلل الباحث سقوط اللغتين اليونانية ، واللاتينية ثم لغة سكان المدن بأسباب وجيهة ، منها تلك التي تعلقت باليونانية التي رأى فيها السكان أنها دخيلة عليهم ، لأنها ليست كالعربية التي مهدت لها الفنيقية السبيل لتجد لها منافذ لأول وهلة الى قلوب السكان ثم كونها قد أبعدت عن الإدارة عشية تولي عبد الملك الخلافة في الشام وإحلاله اللغة العربية في كل دواوين الدولة الإسلامية حيثما وجدوا معنى هذا أن اليونانية التي لا تجد جذورا موغلة في أعماق السكان كانت مهيأة لفسح المجال لأية لغة أخرى لها قرابة بجذور لغة السكان في أية لحظة تدعي الى ذلك ، ولما كانت العربية هي هذه اللغة لم يحاول السكان مد عمرها أكثر مما عاشت في وسطهم حين جاءتهم العربية شفيقة لغتهم ، أو على الأقل جارة لغتهم التي عاشت معها أكثر من أربعة آلاف سنة .

أما موقف لغة سكان المدن الأفارقة من العربية فلندع الباحث يتحدث عنها بكلمة في هذه الفقرة فهي أبلغ من أي وصف نبحث عنه «أما لغة سكان المدن الأفارقة ، وهذه التي قلنا إنها كانت مزيجا من كل لغات الأقوام والشعوب التي تعاقبت على الساحل ، فقد مكن كذلك للعربية منها بما كان من هجرات العرب واستقرارهم في المدن من نحو وبما كان من انتشار الإسلام بين هؤلاء الناس وما يشبع الإسلام من تعلم العربية من نحو آخر ، وبأمرين آخرين جديدين بالتفصيل هما اللذان أفسحا للعربية الطريق وأزاحا من طريقها الأعباء»[2] .

1) شكري فيصل / المجتمعات الاسلامية في القرن الأول / دار العلم للملاين ، بيروت ، ط1978/4 ، ص/181-182

2) نفسه ص / 184 .

• والأمران الآخران الجديران اللذان أشار اليهما الباحث هنا يحددهما لنا في «آثار الفنيقية» التي انقلت لغة هؤلاء السكان الأفارقة الذين يقيمون بالمدن ، والذين هم عبارة عن التجار والصناع ، والمزارعين ، أي أنها لغة ما يسمى اليوم بـ «الطبقة البرجوازية» وهذه الطبقة لا تعنيها اللغة بتاتا ، إنما الذي يعنيها هو المحافظة على وجودها المتواصل المستمر لهذا فهي مستعدة للتخلي عن هذه اللغة ، وعن غيرها إذا كان ولا بد من ذلك وهو ما يكون قد حدث فعلا .

وبتوضيح أكثر كانت آثار الفنيقية ، التي هي لغة سامية لا تنافر بينها وبين العربية ، وهذا الخليط من اللغة الذي تعرفه لغة الطبقات الثلاث : التجار ، الصناع ، والفلاحون ، في المدن والذي يعد الأمر الثاني هما اللذان مكنا من انتشار العربية كما يرى الباحث .

وأما اللغة الأصلية - الأم - التي واجهتها العربية فإن أصليتها هذه هي التي أبقت لها وجودها هذا ، كما أن اعتصامها بالمناطق الجبلية الوعرة ، والواحات النائية البعيدة جعلت حملة العربية لا يأتونها في هذه المواطن لكننا مع ذلك نجد أن العربية على الرغم من عدم تجاوزها مناطق معينة وبيئات محددة قد غزت اللغة الأم بعناوين ومظاهر واضحة محددة مثلها الدين ، واللغة المقدسة ، ثم هي لغة الإدارة أي لغة العمل الرسمي ، ولغة الأدب والفكر والثقافة ، في الوقت الذي تظل اللغة البربرية عارية الجذور لأنها لا تمتلك خلفية ثقافية باقية ، ولا موروثا أدبيا وفكريا يمكنه أن يقف في طريق العربية أو يحاول - حتى بمجرد المحاولة - أن يجاورها في قدومها وامتثالها وأعتلائها العرش بيسر وسهولة ، وعلى هذا يظل رأي فيصل حتى الآن صالحا عندنا بحكم

ما لاحظناه في حياتنا الحالية ، فكيف في فترة انبهار هذا المجتمع أكثر بالإسلام ولغته العربية ، يقول : «... وكذلك نرى أن اللغة العربية استطاعت أن تغزو هذه المناطق الواسعة البعيدة ، ومكنت لها كل هذه الظروف مجتمعة من أن تتغلب عليها ، فإذا هؤلاء الناس هنا يغادرون لغاتهم في شيء من السرعة ، وإذا هم يحلون اللغة العربية من أنفسهم محل أصيل ... ولا نكاد نجاوز القرن الثاني حتى يكون انتشار العربية من السعة ومن الأصالة بحيث نلمح عديدا من العلماء والمحدثين»[1] .

وأظننا أننا قد تمكنا من وضع رأس الخيط في راحة اليد الآن بخصوص هذه المعضلة التي تدل مع هذا الإستقصاء من طرف من ذكرنا ومثلنا بأقوالهم وآرائهم ولكي تشد هذه الراحة على الخيط ، وتآزرها أصابع كف اليد نضيف العنصر الآخر الذي أدى دورا مهما في تعريب المنطقة ، وهو ما اصطلح على تسميته بـ «التعريب الجنسي» ، وهذا يواكب التعريب اللغوي السابق الذي هيأت له العوامل المذكورة الإنتشار ، ويتمثل هذا الطرف في القضية في حالتين ، أو في مظهرين : هما «استقرار القبائل العربية» ، «السبي والرقيق» ، فالمستقرون من العرب لا يحتاجون الى الحديث المسهب لأن ذلك كان محل الحديث في موضوع الفتح الإسلامي للمنطقة ، وإذا كان لا بد للإضافة فإننا نقول ان هؤلاء باستقرارهم ذلك تمكنوا من البربر ، وتمكن منهم البربر عن طريق الإندماج التام ، وبواسطة الصلاة التي جسدها التصاهر الذي تم بين الطرفين أدى الى ظهور أجداد للجيل اللاحق من الطرفين ، الأمر الذي يعود الى التعريب والى غير التعريب ، مما يساعد على التلاحم

1) نفسه

أكثر لتكوين خلية موحدة واحدة هي هذا المجتمع الذي ما تزال الحضارة تشهد له بالباع الطويل في مختلف مجالاتها ، ومن يدري كما قال : شكري فيصل : «فلعل انشعاب البربر في هذين الحيين من البتر والبرانس لم يكن في الواقع إلا لونا من هذا التماثل مع انشعاب العرب في هذين الحيين من عدنان وقحطان ...» .

وأما عن السبي والرقيق ، فإن ما حدثتنا به الكتب القديمة من الهجرات العديدة التي تمت الى دار الخلافة في المشرق ومن تهجير الولاة للآلاف المؤلفة من السكان الى المكان نفسه ، وعودة هؤلاء المهاجرين ، أو المهجرين ، وهم يتقنون هذه اللغة -العربية- ينبغي أن لا يغفلوا كعنصر مهم إن لم نقل أساسيا في هذه القضية .

بهذه الوسائل ، وعن طريق هذه العوامل ، وبوساطة تلك المؤثرات تمكن للسان العربي أن يأتي الديار المغربية ، ومكن الأجيال التي تلت فترات الفتح المتسمة بالمد والجزر أن تكون حاملة لهذا اللسان وللعقيدة ووسائلها لتعبر بها المحيط الأطلسي صانعة هناك في تلك الجزيرة -الأندلس- ما فاتهم صنعه في المشرق، وما عز عليهم أن يستقبلوه في أول لقاء تم بينهم وبين الفاتحين مع عبد الله بن سرح فكان أن لا يعنيهم كيف كان فتح ديارهم، وكيف تم تعريبهم لأنهم في غنى عن كل ذلك ، لهذا لم يحاولوا ترك شيء من كل ذلك لنا في البردى ، أو في الجلود ، أو عسف النخيل ، وكانوا مطمئنين -ولا شك- لذلك راضين كل الرضا بموقفهم هذا من أعمالهم وحياتهم. وما يتصل بها . ومن هنا يمكن لنا نحن اليوم أن نقول بكل بساطة أن تعريب السكان هو هذا التلاقي الموغل في القدم ، وهذه الآثار التي تمثلها الكلمة والحرف ،

والعادات والتقاليد وهذا الحنين الفياض الذي يحسه كل مواطن الى المشرق ، وهذه الإثارة ، وهذا الكرم والإباء الذي يسري في دم كل مغربي ، فلا داعي – إذن – بالجزم بصدق ما قيل في تعريب هذه الديار ، أو عدم صدقه ما دامت النفس لا تطمئن إلا الى هذا الجو الذي تصنعه العربية ، التي هي لسان النبي الأمي محمد ﷺ والعقل لا يرتاح الى أي وافد عدا هذا الذي يفد من الشرق – على الرغم من فساده أحيانا – إذ نادرا ما يفحصه ، ويبحثه ، وما دام الفكر مملوءا بذاك الموروث الضخم الذي لا يستطيع الإنفصال عنه مهما حاول ، وما دام لا يوجهه ولا يحركه إلا هذا الجوهر النقي الذي حفظه الحرف العربي الذي هو القرآن الكريم ·

هذا هو التعريب – إذن – والعربية فلا داعي ، ولا حاجة – بعد ذلك –خارج البحث للاستقصاء عنهما ·

نشأة الأدب العربي المغربي

مثل شأنه ، مثل شأن تعريب السكان ، والفتوحات الإسلامية ، يعني أن الغموض الذي أحاط بالعناصر السابقة يحيط بهذا العنصر كذلك، أو بهذا الموضوع ، لأسباب مشتركة بينها ، ولهذا نص أغلب من تناول هذا الموضوع على أن الجهود التي تحاول اليوم الحصول على مادة أدبية مغربية ؛ إنما تذهب هدرا – ولا شك – وهنا تثار قضية على جانب من الأهمية وهي تتمثل في السؤال : أي أدب مغربي نقصد في هذه المرحلة ، أنقصد الأدب الذي عبر به عنه باللسان العربي ، سواء كان مبدعا من قبل الفاتحين ، أم نقصد الأدب الذي أعطته العربية على ألسنة أبناء المنطقة بعد تعريبهم ؟ ·

وللإجابة عن السؤال بشقيه نحتاج الى القول بأن الأدب له خصائص معينة ، ومنها تلك التي تعطيه الأرض ، والعادات ، والتقاليد ... وهذه بالنسبة للفاتحين لا يدركون منها القليل ، أو الكثير ، كما أنهم نشأوا وتربوا في بيئة غير البيئة المشرقية ، فهم يحملون خصائص بيئتهم بإيجابياتها وسلبياتها ويحملون أغراضا ناضجة ، كاملة عاشوها في بيئاتهم هذه ·

ومن ثم لا نجاري من عد شعر الفاتحين الذي قيل شعرا مغربيا ، لأنه – وإلى جانب ما تقدم – لا نجده يحمل من الخصوصية المغربية ما يشفع له بالإنتماء الى المنطقة على الاطلاق ·

وفي اعتقادنا أن عدم الاتفاق بشأن هذه القضية من طرف الباحثين هو الذي أدى في الآن نفسه إلى عدم الوصول الى تحقيق أول نص قيل

هنا في منطقة المغرب خلال الفتوحات نفسها ، الأمر الذي جعل البعض ينطلق من عينية أبي ذؤيب الهذلي على أساس أنها قيلت هنا في المنطقة ؛ بالنسبة للشعر ، ومن الخطب التي ترددت في معركة اسبيطلة ، أو من وصية عقبة لأبنائه ، أو خطبة موسى بن نصير بالنسبة للنثر ، بينما ينطلق البعض الآخر من المساجلات الشعرية التي دارت بين بعض ولاة ، وقواد الفتح خلال خصوماتهم ، ونزاعهم على السلطة ، والتي تلحق بالغرض السياسي ، وبالفخر ، والحماسة ، على شاكلة قول الشاعر ، أبو الخطار مخاطبا هشام بن عبد الملك :

أفاتم بني مروان قيسا دماءنا ... وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر القنا بصدورنا ... وليس لكم خيل سوانا ، ولا رجل
فلما نلتم نيل ما قد أرتم ... وطاب لكم منا المشارب والأكل
تعاميتم عنا بعين جلية ... وأنتم كذا ما قد علمنا لها فعل
فلا تأمنوا ان دارت الحرب دورة ... وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
فينقض الحبل الذي قد فتلتم ... ألا ربما يلوي فينقص الحبل(1)

وحتى هذا الشعر الذي ينسب الى المشارقة ، والذي عده البعض شعرا مغربيا لا نجده في الحقيقة كثيرا رائجا ، شاملا مستوعبا لكل الأحداث ، والقضايا التي تعيشها المنطقة ، وعن هذه النقطة يستأنس

بآراء القائلين التي مؤداها : «... فإذا ذهبنا ننقب عن الشعر المغربي منذ أقدم المراحل التي يفترض فيها وجوده وهي مرحلة الفتوح الإسلامية ، لا نعثر على شيء منه الأمر الذي يعلله بعض الباحثين بأن جل الفاتحين كانوا من عرب اليمن الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من اقدار على التعبير الشعري » . بينما يرى طرف آخر خلاف ذلك ، إذ ينقض هذا القول بالإعتماد على تشكيلة الجيش الفاتح الذي تكونه مجموعة القبائل العربية كما تقدم في موضوع الفتح –ويلخص– مجمل الأسباب في :

«1– ضياع المصادر المغربية المبكرة – تاريخية وغير تاريخية – وهي خير مظان الشعر المقول هناك.

2– بعد الشقة بين المغرب والمراكز الأدبية القوية في العراق والشام وهي المراكز التي احتفت بالأدب درسا ونقدا وتدوينا .

3– أولوية شعر البلاط لدى كثير من المهتمين بدرس الأدب آنذاك

4– الضعف النسبي لكثير من شعر الفتوح بسبب ملابساته التي تبعث على العجلة وعدم التنقيح ، فإن كان المشرق قد أحتفظ بقدر من شعر فتوحه فذلك راجع الى وفرة المصادر المشرقية التي وصلتنا»(1) .

ونضيف الى هذه الأسباب ما نعتقده مؤثرا في ضياع ، أو أختفاء ، أو عدم وجود النص الشعري في هذا العهد أسبابا أخرى هي :

1– طبيعة السكان التي لا تسمح لهم بتلقف الشعر باللسان العربي ، وتناوله ، وتداوله ، وحفظه ، والإهتمام به ، لأنهم لا يعرفون العربية ، فلا يقدرون على تدوينه ، أو روايته ، أو حتى حفظه ، ولذلك يظل عنصر الضياع المحتمل مبررا تبريرا منطقيا ، ومعقولا .

1) نبوي / المرجع نفسه ، والمكان ذاته .

2- إن الفاتحين أنفسهم لم يستقروا في المنطقة طوال القرن الأول الهجري ، إذ تأكد لنا تاريخيا أن حملات هؤلاء كانت تتسم بالمد والجزر، وأن مكوثهم في المنطقة أول الأمر كان محدودا جدا . وأن فتح المنطقة نفسها لم يتم إلا سنة 84هـ ، ثم أعقب الفتح الاتجاه الى المغرب الأقصى لتدعيم الدولة الإسلامية هناك تلاها الإتجاه الى الأندلس سنة 91هـ ، وهذا يعني التنقل المتواصل للفاتحين والذي يجعل النص الشعري متنقلا كتنقلهم لأنهم وحدهم من يحفظه ، و يرعاه . على اعتبار سكان المنطقة لم يتعلموا العربية بعد . ولم يهضموا الشعر أو غير الشعر بعد .

3- ما يلاحظ -الى اليوم- على سكان المغرب العربي من عدم احتفائهم بالثقافة الأدبية ، ومنها الشعرية خلافا لمواطني المشرق الذين يسري الشعر في عروقهم في مختلف العصور ، والأجيال . ولعل ما يرى من الهجرات التي يقوم بها شعراء المنطقة ، وأدباؤها -حتى اليوم- الى بلدان أخرى مشرقية . أو في الأندلس بحثا عن الجو الذي يعطي للقصيدة مكانتها خير دليل على ذلك ، إن السمك لا يعيش بدون ماء ، وكذلك الشعر والشعراء لا يمكن أن يعيشا في محيط يرفضهما ولهذا لا نستغرب أو لا نندهش إذا وجدنا هذه المنطقة في هذه الفترة فقيرة من الشعر ، كما نجدها فقيرة منه الى اليوم ولعل موقف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع التي ترفض في سنة 1985 طبع الدواوين الشعرية خير دليل على ذلك .

هذا هو جواب الشق الأول من السؤال الذي قدمناه ، والذي يخص قضية أي شعر ، أو أدب نعتبره منطلقا للأدب العربي في المغرب ، وقد تجلى لنا أن القرن الأول الهجري بالنسبة للمغرب العربي لم يعط أدبا سواء كان للفاتحين أو من ابنائه وأن ما اعتبر من أدب الفاتحين نفسه لا يشفي الغليل ، وأنه في ذات الوقت لا يمكن أن نعده أدبا مـ...

ولكل ذلك نحتاج الى التفتيش على الأدب المغربي الذي ينجبه أبناء المغرب الذين تعربوا وأسلموا متجاوزين الرأي الذي يعد الأدب المغربي جزءا من الأدب العربي والذي لانرفضه وإنما نخالف أصحابه فيه لأن ما قاله الفاتحون من شعر ، أو نثر ، يظل مشرقيا كما قدمنا ، وأن الأدب المغربي الذي يعد مغربيا مكملا للأدب المشرقي ، هو ذاك الذي قاله المغاربة أنفسهم بعد تعريبهم .

وهنا نصل الى الشق الثاني من السؤال المتقدم معنا فنجد أن هذه القضية من جهتها مختلف في شأنها ، فهي وإن تأكد للعموم أن الأدب المغربي بلسان أبناء المغرب لم يظهر إلا في القرن الثاني الهجري ، ولم يعم المنطقة بالتحديد أكثر إلا في أوائل منتصف القرن نفسه «الثاني» فإنهم يختلفون كذلك في الشخصية الشعرية الأولى التي كان لها فضل السبق في ابداع القصيدة الشعرية العربية بهذه الديار خلافا للنص النثري الذي يعتقد أن خطبة «طارق بن زياد» كانت منطلقا للتعبير النثري الفني من طرف أبناء المنطقة على الرغم من رد بعض الباحثين نسبتها الى هذا القائد الجزائري الفذ .

وهكذا نجد مدار الخلاف بالنسبة للشعر قائما حول شخصيتين : شخصية «سابق المطماطي» وشخصية «عبد الرحمن بن زياد القيرواني» حيث ذهب «بونار» الى اعتبار عبدالرحمن بن زياد الشخصية الشعرية العالمة الأولى التي أعطتها الثقافة العربية للمجتمع المغربي ، وأخرجتها مدرسة القيروان وعد أول مولود في الاسلام بالمنطقة . وتوفي سنة 161هـ أما ولادته فقيل انها كانت سنة 74 ، أو 75هـ ثم تلاه أبو

كريب[1] جميل بن كريب في تونس أيضا واشتغل في القضاء وتوفي سنة 139هـ . أما محمد النادي عبد النافع فيرى أن الشخصية التي نبغت في الشعر قبل غيرها بعد الفتح الاسلامي من البربر ، إنما هي شخصية سابق البربري التي استطاع صاحبها أن يوجه قصيدة رائعة الى الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز 99 - 101 يعظه فيها والتي منها :

إن الأمور اذا استقبلتها اشتبهت ... وفي تدبرها التبيان والعبر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... اذا انقضى سفر منها أتى سفر
لها حلاوة عيش غير دائمة ... وفي العواقب منها المد والصبر
وليس يزجركم ما توعظون به ... والبهائم يزجرها الراعي فتنزجر
اصبحتم جزرا للموت يقبضكم ... كما البهائم في الدنيا لكم جزر[2]

فإذا نظرنا الى التاريخ الذي عاش فيه «عمر بن عبد العزيز» كخليفة ، وكان هذا النص فعلا لهذا الشاعر البربري الأول الذي نطق بالشعر العربي الفصيح ، وعددناه من كبار الشعراء كذلك ، بيد أن «بونار» نفسه الذي عد «عبد الرحمن بن زياد» كأول شاعر ظهر في المنطقة متمكنا من التعبير الشعري باللغة العربية يستدرك ما ذهب اليه -في هامش ص 51- من كتابه ويؤكد ما ذهب اليه محمد النادي عبد النافع ، وهذا يعني حصول اجماع لينا بالنسبة لهذه النقطة ، وما دمنا لا نملك غير هذه المراجع ليس إلا من البديهي أن نسير في الإتجاه نفسه ونطمئن إلى هذه الحقائق على أنه ينبغي لنا القول بأن الشخصيتين معا،

1) رابح بونار / المغرب العربي تاريخه وثقافته / ص 51 .
2) محمد بونار ، المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، ص/50-51 ، وهامش ص /51 ، وابن الأثير في كتابه الألباب ، جـ/1 ، ص107 وغيرهما .

عبد الرحمن و سابق إنما تقيمان في تونس على ما يبدو ، وأن تونس على هذا الأساس أو القيروان هي التي كان لها فضل الزيادة في تخريج مثقفين مبدعين باللغة العربية ، وإن كان هذا التقسيم في هذا العهد لايقره العقل ولا تقبله خصائص المجتمع المغربي آنذاك بحكم عدم وجود الحدود بين الأقطار الثلاثة ، وبحكم تنقل أهلها تنقلا حرا ، مما يعسر بكل تأكيد نسب أي كان الى موطن مسقط رأسه ، مالم تحفظ لنا ذلك الكتب القديمة ، وهذا مالم يقتد به بعد عند العرب في الفترة التي نتحدث عنها .

وأيا كان الأمر فهذه البداية ستشكل النواة الأولى الحية لظهور أدب عربي مغربي يأتي الجزائر والمغرب الأقصى ، كما عرفته تونس ، إذ نجد الجزائر تلحق بهذه الحركة الثقافية الواسعة التي عرفتها تونس فتنطلق بها من جهتها الأصوات الأدبية وتتفجر عقول العلماء أو المفكرين في مجالات المعرفة المختلفة ،وحقول العلم المتعددة ، وعلى الأخص ما يتعلق بالجانب الرسمي الذي كان المحور الأول عندهم والركيزة الأساسية لمختلف الفنون والعلوم ، والمعارف وقد بدأت هذه الحركة مسيرتها مع بداية أوائل منتصف القرن الثاني الهجري حيث شرعت طبنة «بريكة» التي حدد بناءها عمر بن قصية 151 - 154هـ والتي اتخذها قاعدة للجزائر الشرقية في الحركة العلمية والثقافية فنافست بذلك «تيهرت» العاصمة الإباضية ، ومدينة القيروان ، وبواسطة هاتين الحاضرتين الجزائريتين طبنة و تيهرت أمكن الإلتقاء بعلماء أجلاء في الفقه والحديث والعقائد ، وكذلك الأدب ، ومن هؤلاء الإمام عبد الوهاب بن أفلح 168 - 188هـ . ووالده عبد الرحمن بن رستم 144 - 168هـ والأمير ابراهيم بن

الأغلب الذي تولى إمارة القاعدة الشرقية الجزائرية طبنة ثم انتقل الى افريقية تونس ليعلن اتسقلال المنطقة كلها عن الدولة العباسية بعد موافقة الخليفة هارون الرشيد على ذلك سنة 184هـ[1] .

بهذه البذور ترسخت الثقافة العربية في المغرب وبها امتدت واتسعت حتى عدت منبرا ناطقا مبلغا صوت الإبداع ، والفن والعلم والمعرفة ، الى آذان الأمة الاسلامية ، والمجتمع الإنساني في مختلف أصقاع الدنيا ، فتم من هذه الديار تبليغ العقيدة ، والكلمة الى أجزاء كثيرة من افريقيا الغربية ، وتم منها منافسة المشرق في مجالات عدة أدبية ، وفكرية وعلمية ، كما سينجلي في البحث الآخر الذي يتناول الأدب المغربي . وبذلك أدت هذه المنطقة دورها الحضاري آن كانت الشعوب الاسلامية مشمرة عن ساقيها لتجاوز التخلف أو البحث عن السعادتين الدنيوية والأخروية ، فكانت كما وصفها الله فصلا : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾[2].

---

1) يستحسن للإ ستفاضة في هذه القضايا العودة الى رابح بونار في المغرب العربي تاريخه وثقافته ، والطمار ، تاريخ الجزائر الثقافي وبقية المصادر والمراجع التي ذكرناها في مختلف الهوامش .

2) آل عمران : 110

الفصل الثالث

أشعة السماء تفجر الابداع على ألسنة أهل المغرب

الأدب في ظل الولاة « 85 ـــ 184 »

أ - الشعر

اتضح من الصفحات السابقة التي استهدفنا فيها البحث عن أدب المغرب العربي قبل الإسلام ، أنه مفقود ، واتضح كذلك أن مشكلة مهمة تعترض طريق الباحث ؛ الذي يبحث عن تحديد للأدب المغربي شعره ونثره ، حين يتعرض للأدب الذي قيل من طرف الفاتحين ، أي المشارقة الى أين ينسبه ، ولما كنا قد قلنا رأينا - فيما تقدم - فليس من الضروري اعادة ما ألمحنا اليه قبل ، وسوف نكتفي هنا تتناول نماذج من الشعر والنثر التي قيلت في عهد الولاة لكونها تعد أول اتصال بين السكان الأصليين ، وبين لسان الفاتحين العربي ، أي بين دعوة الى الاسلام «العقيدة» ، وبين تعبير عنها بلغتها التي هي لغة العرب .

وقصدنا من ذلك أننا نضع أيدينا من البداية على ماله صلة بانشاء أدبي مغربي عربي ، لأننا نظن أن هذه النصوص ، أو أصحابها قد ساهموا في تعريب أهل المنطقة مساهمة حددت ظروف كل واحد منهم وحياته وثقافته ...

ولعلنا لاحظنا من الفترة التي حددت للولاة في المنطقة أنها تبلغ قرنا من الزمن ، وأن هذه المدة كافية ولا شك بإعطاء أدب من المشارقة على الأقل وبذلك يمكن لهذه المنطقة أن تكون مسايرة للمنطقة المشرقية التي عرف فيها الشعر بعض الركود في انتظار ظهور الجيل الجديد المعرب من الناشئين في المنطقة ، وامتزاج الحضارات في المشرق لتعطي الثمرة الجديدة للشجرة الجديدة التي تلت الفتوحات وأعقبت التنقل ، والحل ، والترحال بالإستقرار ، والعودة الى التراث ،والاستفادة

من نمط الحياة الجديد الذي أعطاه البلاط والبيئات الجديدة التي سكنها العرب في مختلف الفترات والذي نراه من أول وهلة عند تعرضنا فيها للنصوص هو هذا الشح الذي ميز النبع الشعري العربي ، أوجفافه هذا لم يعهد عن أصحابه قبل الإسلام وفتوحاته إطلاقا ، وقد كنا نظن، أو كان يظن الكثير أن ذلك يخص منطقة المغرب وحدها لأسباب تقدمت ، بينما الحقيقة نجدها غير ذلك تماما ، إذ وجدنا هذا الجفاف يمس مظان الشعر في أصولها بالمشرق نفسها ، وتضاف اليها تلك التي أوردها شكري فيصل[1] ، والتي منها «عدم الإستقرار» ، و«الموطن الجديد» الذي تصدر عنه «دهشة» هؤلاء الجدد الذين أتوها ، و«الضمور» الشعري الذي تعمده الشعراء ، ثم غياب الوقت الكافي للصنعة الشعر جليسا أنيقا ملفتا للأنظار ومسلبا للألباب لهذا تظل المسألة مزدوجة عندنا جانبا منها يخص النتاج نفسه «الكم» وآخر يخص «المستوى» أو الجودة «الكيفية» أي أن ما يخص نقص القصيدة ؛ بل قلتها -الكم- يعنيها في مستواها أيضا -الابداع- ، وكل ذلك -بعد هذا- يلخص في العوامل الاجتماعية ، والنفسية ، والاقتصادية ، يضاف الى ذلك في المغرب ما ذهب اليه «الطمار» في قوله متحدثا عن عهد الولاة : «البلاد حديثة الاستعراب ، والعصر يسوده الاضطراب وعدم الاستقرار ، فمن البديهي أن لا نرى أدبا ، ولا أدباء إلا ما كان من رجال الدين والفقه والدعاة الذين يفدون لتثقيف أهل البلاد . وإن كان أدباء فهم من

1) شكري فيصل «دكتور» المجتمعات الاسلامية في القرن الأول / ص 364 وما بعدها .

العرب الراحلين ولكن لا نجد لهم أثر ، وإن وجد يوما ما ، فليس له من الجزائرية شيء لأن أصحابه مشارقة ، وهو أدب يتناول في الشعر ما عرفناه للمشاركة من أبوابه ، وفي النثر الرسائل والوعظ الديني ، والخطب الدينية والسياسية »[1] .

هذه العلل والأسباب التي تلتقي فيها المجتمعات الاسلامية في كل مواقعها ، أحيانا ، وتخص نقاطا منها خاصة أخرى كهذه المنطقة -المغرب العربي- هي التي يصفها كذلك شكري فيصل في مواطن عدة، ومنها قوله : «.. إن الحياة الاسلامية نفسها ، أول عهدها بالفتح كانت توحي به وتدعوا اليه . ذلك أنها كانت حياة تقوم بالعرب ، والعربي يؤمن باللمحة الخاطفة وتقنعه الكلمة السريعة ، ويعوضه صمت الصحراء وامتداد الصدى بالحديث ، وكانت كذلك حياة منطلقة معجلة، من أمامها وورائها هذه الأعباء الثقال ، أعباء الفتح وما يقتضي الفتح من إرادة وصلات سياسية وحكم .. ولم يكن العرب قد استقروا بعد ولم يكونوا قد عرفوا مواطئ أقدامهم من هذه الحياة الجديدة ولا مدى انسياقهم مع ألوانها وشياتها ، ولذلك كانوا وكأنما هم يحملون عصا الترحال فوق ظهورهم ، وحياة كهذه الحياة ، التي نتمثلها ترهقها الوجائب وتثقلها الأعباء ، وتناديها الأصوات من هنا وهناك ، وتلح عليها الفتوح من كل جانب ، لم تكن لتسمح قط بالإطالة أو التمثل أو تشقيق الكلام ، وانما يبدو أنها كانت تدفع الى هذا الإيجاز دفعا وتضطر اليه اضطرارا»[2] .

1) محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري ، ص / 24 .
2) شكري فيصل / المجتمعات الاسلامية 365 وانظر مواطن أخرى في الكتاب ففيها المهم عن هذه القضايا وأخرى تخص شعر الفتوحات عموما

وهذه الأوصاف التي استنتجت من النصوص الشعرية التي تعني فترتنا سواء أخذناها من المشارقة متحدثين عن المشرق ، وأدب المشرق ،أو من المغاربة متحدثين عن المشارقة في المغرب ، أو حتى المغاربة أنفسهم مع الجيل الأدبي الأول منهم ، تجعلنا نعرف من خلالها أن النصوص لا تختلف عن هذه التي وصفت بهذه الأوصاف في أي مجال كان ، كما تسمح لنا بسهولة الوصول الى أن الشح ، أو الجفاف الذي مسها أو تميز به أصحابها كذلك سيمس حتى الموضوعات التي تحدث فيها هؤلاء ، أي شعراء هذه الفترة .

وبعد هذا نستطيع الوصول الى عالم النصوص ، أو طرق أبوابها ومن الطرقة الأولى تعترضنا صعوبة تتمثل في الجانب التسلسلي الزمني ، الذي لا نستطيع الحزم بأنه صحيح نظرا لغياب دقة ولادات ووفات من ذكر شعرهم ، ولهذا فضلنا التركيز على الموضوع ، والإكتفاء بالاشارة الى أصحابها بين الحين والآخر .

ولما كانت الفترة المتحدث عنها هي فترة الفتوحات ، وكنا قد ألمعنا الى نص ظن أنه قيل في ابنة جرجير ، وما قيل أنه قاله أبو ذؤيب في المغرب العربي غداة الفتح ، ورأينا أن الموضوعين معا تناولا جانب الفتح ؛ أي الجهاد ، أو الغزوات صحت الروايتان أم لم تصحا – كما – تقدم فإن الموضوعات التي التقينا بها في المصادر والمراجع التي بين أيدينا مثلتها أغراض : العتاب ، الفخر ، والمساجلات ، والرثاء ، والسلوى أو التصبر ، والحنين الى الوطن ، وشكر الأصدقاء ، وهي الموضوعات التي نعرفها في الشعر العربي في المشرق ، ونعرف التسلسل الزمني في ظهورها ، وأعلامها والقصد من تناولها الى غير ذلك مما يتصل بها .

فالفخر حدثنا به شاعر مشرقي يدعى الحسام بن ضرار الكلبي توفي سنة 128هـ قيل عنه أنه من الفرسان العرب المحدودين ، تولى أعمالا عدة في الدولة الإسلامية ومنها ولاية الأندلس في عهد بشر بن صفوان والي القيروان ، وفي عهد هشام ولى عبيده بن عبد الرحمن القيسي القيروان فغضب على ولاة بشر ومنهم الشاعر الذي عزله ، وأهانه فقال الشاعر قصيدة منها هذه الأبيات :

أفاتم بني مروان قيسا دِمَاءنَا … وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط … ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حد القنا بنحورنا … وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم قبل ما قد أردتم … وطاب لكم منا المشارب والأكل
تعاميتم عنا بعين جليلة … وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل
فلا تأمنوا إذا دارت الحرب دورة … وزلت عن المرقاة بانعدام النعل
فينتقض الحبل الذي قد فتلتم … ألا ربما يلوى فينتقض الحبل(1)

لقد تناول الشاعر فضله ، وفضل قبيلته على الدولة الأموية ، فأثار هنا في المغرب قضية المشرق الكبرى التي دارت حول الخلافة ، فركز على العصبية التي تستثير حكام «دمشق» آنذاك وقد نجح في طرحه القضية بهذا الأسلوب ، وهذه الكيفية ، إذ أنه –والى جانب– ما تشير اليه الروايات بخصوص عزل الوالي الذي كان سببا في قضيته واسترضائه فقد عرف «من أين تأكل الكتف» – كما يقال – حين لم

1) رابح بونار / المغرب العربي تاريخه وثقافته / ص 52 وانظرها في ابن الأثير الكامل في التاريخ ، جـ 4 / ص 260 وعبد العزيز نبول محاضرات في الشعر المغربي القديم ص 38 وفي أكلة السيراء وشعر المغرب حتى خلافة المعز لأبراهيم الدسوقي ، دار الثقافة القاهرة 1973 .

يضعف أمام المخاطب ، فذكر بالردود التي تحدثها مثل قضيته هذه عندما تبلغ قومه ، منبها الى حقه في الموروث الخلافي الذي ساهمت قبيلته في صنعه مع الأموين بيد أنه تحامل على الحكام وتجاوز المألوف في الخطاب الشعري العربي في مثل هذا المقام الذي يصدر فيه الخطاب من الأدنى الى الأعلى ولعل بعد المسافة هو الذي حذلق لسان الشاعر أكثر وأباح له الإنطلاق بمثل النص ، وبالتحديد بمثل هذه الألفاظ «العمى» و «نقض العهد» والتهديد «فلا تأمنوا ...» ومن جانب آخر نلاحظ أن النص مشرقي في موضوعه ، وأسلوبه لا يبتعد عن أساليب شعراء الرسول ﷺ عبد الله بن رواحة ، وحسان أحيانا وغيرهما ، وعن شعراء العهد الأموي كذلك أمثال جرير في بعض نصوصه الفخرية بحكم انتمائه الى الأسرة الحاكمة . ثم صلة النص بالمميزات والخصائص التي مهدنا بها لتناول الأغراض كالقصر ، والوضوح ، والمباشرة أحيانا والتلقائية ، وغياب الزخرفة الأسلوبية التي تثقل نصوص فترات الإستقرار والهدوء ، والدعة بالبديع والبيان كما يلحظ ذلك في شعر غير هذه الفترة فترة الفتح .

ومع الشاعر ذاته نلتقي مع غرض الفخر في هذه الأبيات التي تحدث فيها عن شجاعته ، وبأسه حين فتك بقاتلي أحد أصدقائه الكلبيين . يقول :(1)

فليت ابن جواس يخبر أنني ... سعيت به سعي آمر غير عاقل

قتلت به تسعين تحسب أنهم ... جذوع نخل صرعت بالمسايل

ولو كانت الموتى تباع آشتريته ... بكفى وما أستثنيت منها أناملي

1) بونار / المغرب العربي تاريخه وثقافته ص 53 .

ومن جديد نلاحظ ، بل نشير الى سيادة روح العصبية في منطقتي المغرب . والأندلس ، والتي نقلها المشاقة معهم ، فكانت بذلك المنطقة تسير ثقافيا في ركاب قطار الثقافة المشرقي موضوعا ؛ وشكلا ، أو بناء ومحتوى بيد أن هذا الركاب نفسها لهذا العهد ما يزال مشدودا بسلاسل قوية جدا الى عربات قطار الشعر الجاهلي الذي أعادت عصبيته الأوضاع السياسية ، وهكذا نحس بفجوة واسعة حدثت مع قيام الدولة الأموية التي أعادت للعصبية دورها ، فاستتر ذلك النجم الإسلامي المضيء الذي أذاب هذه السلاسل ، وأخرج من أعصاب القبائل المشدودة بها نسغا ممتزجا أعطى هيكلا متماسكا هو ذاك الجيش الإسلامي ومجتمعه الذي بفضله نتحدث نحن هنا عنهما ، وعن لغة القرآن ونكتب بها .

لقد قتل هذا الشاعر قاتل صديقه ؛ بل تسعين ، وتجاوز ذلك الى قوله أنهم «جذوع نخل» أي أنهم على هذا المستوى من السهولة ، واليسر والهون ، فهو بذلك لم يمس غير جذوع نخل لأجل جذع استماله لنفسه ، وأتخذ منه حدنا له ، فلما ضاع منه – ودون أدنى تفكير – حاول قطع الأصل ، واستئصاله من الوجود .

لقد ساق الحادثة في النص الذي مثلنا بأبياته الثلاث ، وهي الأبيات التي تبدو عارية اللغة والأسلوب ، فالكلمات فيها قائمة بذاتها ، والذي يحاول الهروب الى ظلالها لا يجد غير عيدانا يابسة جافة مركزة في الصحراء العربية ، التي أعطت هذا الشاعر ، ومن شايعه وهذا شأن لغة شعر هذه الفترة – كما أسلفنا – وشأن شعر الحوادث ، والحروب ، والثورات ، والإصلاح ، حين يأتي مواكبا للحدث ، أو مرافقا للفكرة ،

أو محمسا لقضية ، أو إعرابًا عن فرحة ، أو تعبيرًا عن حزن للبحث عن اللمحة ، والإماءة ، والتحليق ، وبقدر ما يبحث عن طرق الإيصال ، وأساليب الأداء وكيفية الإثارة والإستجابة عند المتلقي. أي أن نظرية الطرف الرابع في الشعر أي الجمهور التي أخذ بها أرسطو تعد في المقام الأول ، وفي شعر «أراغون» الذي قاله في الثورة خير دليل على ذلك ، و«مفدي زكريا» ليس بعيدا عنه كثيرا . فليس من العيب إذا وجدنا هذا الشعر على هذا المستوى ، بل العيب أن لا نكون مستوعبين لكل نظريات الشعر ، فنطلق نتيجة جهلنا لذلك من قطرة مهربة من جداول ، بل من بحور عدة ، ونحسب أن ما لم يكتب بماء هذه القطرة ليس شعرا كما وقع في ذلك العقاد مثلا وجماعته في الديوان ، والذي تراجع عشية نضجه فأبدى أسفه ، وأقر جهله بكفية ، أو بأخرى ، والمرء لا يكون عالما إلا إذا أقر ذلك وقديما قيل «من قال لا أعلم علمه الله ما لا يعلم» .

هذه «المزاوجات» ، أو «المقارنات» أو «الموازنات» نسوقها هنا حتى نقترب من الشعر القديم بمنظور حديث ، فلا نقع في قبضتي بعض المتأدبين ممن لا يعرفون من النقد إلا المصالح الشخصية فإن لم تلب رغباتهم ، وإن عجزوا عن بلوغ السنان حملوا لواء الهدم لضرب كل ما هو قديم ، وكل ما هو أصيل لأنه لا يصلح ، ولكن لأحقاد وأضغان ، أو للبحث عن بروز بأسلوب أو بآخر يكاد يكون ممثلا في قول «الرئيس الإنجليزي عشية الحرب العالمية الثانية : إني مستعد لمحالفة الشيطان إذا كان ذلك يضمن انتصار انجليتره» .

هذه المحالفة التي إن كانت عند هذا الرجل وفي أعراف السياسة عند

البعض معقولة ، فإنها في مجال العلم لا ينبغي أن تخطر حتى على البال أبدًا ، ومهما كان الأمر ، فالشاعر إن كانت نظرتنا الى نصه تتسم بهذه الأحكام ، فإننا سنظل ضيوف فتاة مائده ، لأن قوله مهما كان ظل باقيا أما ما قاله من درسه مثلنا فلا نكاد نظفر بحرف واحدٍ مما قيل عنه اليوم ، ولهذا يظل فرويد يعده الشعراء أسيادا في غاية الصواب .

أما الغرض الآخر الذي عرفته فترة الولاة فنجده ممثلا في المساجلات، أو إن شئنا في المراسلات – التي تحمل طابع الفخر ، والتي صدرت عن مقاتلين كذلك كما صدرت الأولى عن مقاتل تولى القيادة ، والولاية ، وصاحبا هذه المساجلة هما : «الأغلب بن سالم بن خفاجة التيمي 150هـ» . الذي كان واليا من قبل المنصور على افريقية ، فوطا فيها الأمن وأرسى إمارته، لكن «حسن بن حرب» الوالي من قبل الأمويين شق عصا الطاعة عن الوالي العباسي ، وظل متشيعا للأمويين ، فراسله «الأغلب» بالنص .

ألا من مبلغ عني مقالا   يسير الى الحسن بن حرب
بأن البغي أبعده وبال   عليك و قربه لك شر قرب
وإن لم تدعني لتنال سلمى   وعفوى فادن من طعن وضرب

فرد « الحسن بن حرب الثائر » بقوله »

ألا قولا لأغلب غير سرٍ   مغلغلة عن الحسنِ بن حرب
بأن الموت بينكم وبيني   وكأس الموت أكره كل شرب

وأنتهت المساجلة اللفظية ، بمقارعة السيوف ، والقنا ، وكانت أسهم من السهام نصيب جسد «الأغلب» الذي مات سن 150هـ ، فانقضى جسديا وظل روحيا بهذه الأبيات التي أعطتنا سبب وفاته ، وخلدت لنا

موضوعا من موضوعات الشعر العربي لهذا العهد ، والذي أعطى لنا أبعادا أخرى كشفت عن صراعات الحكام ، واختلافاتهم حول الكرسي وإراقة دماء المسلمين في الفراغ ، كما أكد سبب تأخر التعريب السريع للمنطقة بخلاف البلدان الأخرى التي عرفت الفتح كهذه المنطقة في عهد الرسول ﷺ ، أو في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وفي مقابل ذلك نجد إتصال النصين بأبيات في معلقة عنترة تحدث فيها عن منازله الذي قضي عليه ، وفي قصيدته عن «النعمان بن المنذر»

حكم سيوفك في رقاب العذل   وإذا نزلت بدار ذل فارحل

بعبارة أخرى إننا مازلنا نعيش ذلك النص العربي الجاهلي في مضامينه وأشكاله ، وان ابتعدنا عن بنائه الفني، وعن نفسه ، ودقة احكام بنائه اقتداء بالأثر القائل : «ولكل مقام مقال» .

وفي الرثاء نلتقي مع الجندي «ثابت السعدي» في أبيات أرثى بها «الأغلب» الذي سبق ذكره ، إذ حضر وفاته ، وتأثر لذلك لأنه كان جنديا من جنوده ، قال في ذلك :

لقد أفسد الموت الحياة بأغلب   غداة غدا للموت في الحرب معلما
تبدت له أم المنايا فأقصدت   فإن كان يلقى الموت في الحرب مصمما
اخا غزوات ما تزال جياده   تصبح عنه غارة حيث يمما
أتته المنايا في القنا فاخترمنه   وغادرنه في ملتقى الخيل مسلما
كأن على أثوابه من دمائه   عبيطا وبالخدين والنحر عندما
فبان شهيدا نال أكرم ميتة   ولم يبلغ عمرا أن يطول ويسقما(1)

الموت ، الحياة ما بينهما من مسافة ، ثم الشجاعة ، والاقدام ، وتعوده على القتال ، وطريقة وفاته ، أو استشهاده كما قال الشاعر ، ولما استشهد

1) رابح بونار / المغرب العربي تاريخه وثقافته ص / 58 .

أعتلاه من الدم ، وكيف أمست جثته ، أو غدت هيأته ، وفي النهاية إنما ميتة الشرف ، والعز ، وكانت في مقتبل العمر ، حيث مات في عنفوانه ، هذا مضمون النص في عمومه لم يكشف الشاعر عن أساه ، ولواعج نفسه وهو يشهد أنهيار هموم من الأهرام التي يسند إليها ظهره ويستلقي في حجرها ، بل نظر الى الحياة والموت في طرفي نقيض تلك ترعى و تعمر ، وتمد فتحلو ويرغب فيها ، ويسعى الى بقائها ، واتثبت بأسبابها ، والآخر معكر ، مباغت ضنين ، يأخذ ولا يعطي ، فهو هنا شبيه بالمعري ، أو بالأحرى شبهة المعري فيما بعد ، حيث تجاوز المألوف .

أعيني جودًا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى ؟!

ولم يأخذ كذلك بأسباب النص الرثائي العربي في معانيه إلا في النادر من الألفاظ في نصه إلا ما تجلى منها من الوصف الظاهري للمرثى، لهذا بدا النص رصدا للحقائق وعرضا للحادثة ونتائجها وكأنه بذلك يؤرخ الحادث و لا يبكي صاحبه هذا ، وهو ما ينبغي أن يكون لأن ربط النص بصاحبه يلزمه على هذا البناء شكلا ومضمونا ، فهو ذلك الرجل الذي حضر الموت كثيرا وقارعه في الميدان ، الأمر الذي عوده على رؤية الدماء ، وعلى مشاهدة القتلى ، فلم تعد هذه الجثث . ولا هذه المنجزات تستثير نفسه ، لذلك كان النص متميزًا بفتورة لمحدودية معانية ، ورتابة موضوعة على الرغم من أنه موضوع البراكين ، والزلازل التي تجعل النفس البشرية في أعنف تدفق تعرفه ، وتلقي به خارج الذات في هذه اللحظة وفي هذا العالم الكالح الرهيب الذي يتحول فيه كل شيء من موعي الى غريب مجهول . وفي التصبر ، والسلوى يأتي

«سليمان الغافقي» الموصوف كذلك بالشجاعة والفروسية ، وفصاحة اللسان والشاعرية الفياضة الجيدة ليتحدث عن الهم الذي شغل باله كثيرا ، وعانى منه صحبه طويلا ، وهو الذي مثلته هذه الثورات البربرية . ليقول في ذلك ما يخفف ألمه ، وآلام صحبه ، ويعزيه في بلواهم التي كانت تحل بهم ، معيدا معنويات الجند مبعدا عنهم روح الخذل والتكاسل[1] :

وما إن صددنا عنهم خوف بأسهم — وحاشا لنا أن نتقي بربرا
وإنما إذا ما الحرب اسعر نارها — لنلقى المنايا دار عين وحسرا
ونغدو بصبر حين تتشجر القنا — فلست ترى منا على الموت صبرا
ولكن أردنا ذل قوم تطاولوا — علينا وأبدوا نخوة وتكبرا

النص واضح في معانيه ، وهو الى جانب ذلك وثيقة سياسية وتاريخية أزاحت اللثام عن الصراع السياسي المبني على العصبية من جهة بين العرب والبربر كما في البيت الأخير : «أردنا ذل قوم» بالنسبة للعنصرالعربي ، ورفض البربر لهؤلاء لأنهم لم يحفظوا الود و العهد ، ولم يبقوا على تعاليم الإسلام : «تطاولوا علينا وأبدوا نخوة وتكبرا» وأرخ -من جهة أخرى- تأرجح كفتي الميزان التي كانت تمثل الأثر «يوم لنا ويوم علينا» أي إذا كان اليوم لهذا الطرف ، كان الغد عليه ، وهذه هي الدنيا والحياة وفي النهاية يمكن عد هذا النص -الى جانب تعلل الشاعر به- تعبيرا عن الثورات التي كان السكان يعلنونها بين فئة وأخرى ، وهو موضوع آخر يعرف الوضوح أكثر ، والإتصال ، والتواصل مع قيام الدويلات الثلاث بالمغرب في القرن الثاني الهجري ، أي ظهور أدب

1) بونار / المرجع نفسه / ص 59 .

الجيل الجديد الذي ولد في الإسلام ، وتجاوز عقدة اللسان التي واجهت الأوائل من أبائنا عند اسلامهم مع بدايات الفتح المؤزر .

وفي الحنين الى الوطن لهذا العهد نذكر قول : «عبد الرحمن بن زياد» الذي كان قاضيا بالقيروان ، وعزل ثم أعيد وعزل فاتجه الى المشرق ، وهناك قال متشوقا الى بلده القيروان :

ذكرت القيروان فهاج شوقي — وأين القيروان من العراق؟!
مسيرة أشهر للعيس نصا — ومن يرجى لنا وله التلاقي؟!
بأن الله قد خلى سبيلي — وجد بنا المسير الى مزاق[1]

ونختم بموضوع آخر عرفته الفترة ، وهو موضوع شكر الأصدقاء للشاعر المتقدم معنا «الحسام بن ضرار» حيث قال في أحد أصدقائه :

إن ابن بكر كفاني كل معضلة — وحط عن غاربي ما كان يؤذيني
إذا أتخذت صديقا أو هممت به — فاعمد لذى حسب إن شئت أو دين
ما قدر الله في مالي وفي ولدي — لا بد يدركني لو كنت بالصين[2]

هذه موضوعات الشعر المغربي في عهد الولاة ، وهذا مستواه ، وهو شعر كما تجلى لنا من هذه المقطوعات والقصائد - تتجاذبه عدة مميزات توجز في اتصاله الوثيق بموضوع الشعر العربي المشرقي الذي يتناول الحياة اليومية للانسان العربي عاملا أو مجاهدا ، أو متوترا متألما لحدث من الأحداث ، أو مهددا متوعدا لسبب أو لآخر ، وهو دون ذلك الشعر في جمالياته اللغوية والأسلوبية ، وفي نفسه المحدود الذي لا يتجاوز إيجاز فكرة يمكن أن تشكل ملحمة بكاملها، وهو كذلك عرف قائليه

1) بونار / ذات المرجع ص 81 .
2) نفسه ص / 52 .

فتجلوا لنا أنهم ليسوا شعراء القصيدة المحترفين بتعبيرنا المعاصر بقدر ما كانوا مجاهدين مقاتلين ، ولا يعودون الى الشعر إلا في حال نادرة ، وما كان يصدر عنهم يشبه ما يصدر عن أم في لحظة فزع فراحت تواسي مصيبتها بأغنية ، أو يشبه المثل العربي الذي كثيرا ما كان يتولد عن حادثة معينة في لحظة معينة لسبب معين تفجره ، وتصقله العفوية والتلقائية فيأتي بسيطا ابساطة لجو الذي انتجه واللحظة التي أعطته ، وهذا يعني بالضرورة أننا عند تناولنا هذا الشعر لا ينبغي علينا أن نحمله أكثر مما يطيق ، بل علينا أن نضعه في كفة وقائليه في كفة أخرى ، ويجعليهما متوازيين تكون عربات قطارنا مشدودة الى بعضها متماسكة ، تمكننا من قطع المفازة المجهولة التي تنوى غزوها وإلا فإننا سنكون كأشعب الذي رفض أهل الدار إطعامه فشتم نفسه وانصرف .

ب – النثر

حين ينفجر نبع من النوابع في سهل من السهول ، أو في قمة من القمم ، يكون إنفجاره هذا ملفتا للأنظار ، مستوحيا للإهتمام ، منشطا للمحيطين به ، لأنه عنوان الحياة ، والوجود ، والثراء ، والرخاء ، والنماء، الى غير ذلك، مما يعطيه النبع من الفوائد الحية التى لا تحصى – ولاشك – .

هذا شأن الاسلام بالنسبة للنثر الأدبي العربي ، الذي كانت خيمة الشعر تغطيه ، وقلما تخرج منها يد لتأخذ منه جملا تقي بها الحقيقة من العواصف النادرة التي تحاول إقتلاع أوتاد هذه الخيمة الشعرية الجاهلية التي تغطي تلك الأطراف الشاسعة التي لا يحدها نظر ، ولا يرسمها بصر .

فلما جاء الاسلام أعاد نسج تلك الخيمة بألوانه ؛ بل بخيوطه الدقيقة المحكمة التي تجاوز رونقها وجمالها خيوط الخيمة الشعرية الجاهلية ، ودعا الى استئصال بعض هذه الخيوط إجمالا ، وتفصيلا ؛ وبخاصة تلك التي لا تقي الذات العربية ، والذات الاسلامية من عوامل التعرية التي لا تقرها قيم المجتمع وأعرافه حتى فيما قبل الاسلام نفسه .

وهذا هو القرآن الذي حين فاجأ المجتمع الجاهلي ببلاغته ، وفصاحته، ونقاوة معانيه ، شدهم اليه ، فقلب مختلف موازينهم رأسا على عقب ، وراحوا يقفون أمام السؤال المعجزة –:وماذا عسانا تقول في حضور هذه المعجزة الفنية التي لا يرقاها راق ، ولا يأتيها ناشد ، أو معارض ، بحال من الأحوال .

ولما كانت ظروف الحياة تقتضي استمرار الأسباب وتواصل الذات ، وكانت الدعوة نفسها تأخذ بالعامل التعبيري كوسيلة من وسائل التبليغ، وعاملا من عوامل الرد والتحدي ، كان هذا الموروث الثري الضخم ، يحاول الطفو على الخيمة الشعرية ، ثم كان هذا النهج الاسلامي الجديد الذي يقتضي وضع ما يخص هذا المجتمع في قوانين ومراسيم ، ويلزم برسم نمط الحياة في مختلف مجالاتها ، وأطوارها ، لما كان هذا هو أمر الدعوة ، وكانت الكلمة النثرية وسيلة من وسائلها كان ما لوحظ عن عمومها وبروزها محددة خير تحديد عن شكري فيصل في : «...إن رصد الحياة الأدبية في صدر الاسلام حين كانت الفتوحات الاسلامية في ذروتها من التألق والامتداد ، والنظر الفاحص الى تطور كل من الشعر والنثر يضعنا أمام صورة واضحة لاتجاه معاكس يسير فيه كل من هذين الفنين سيرا منفردا متوحدا .

فبينما يبدو الخط البياني الذي يرسمه النثر الفني ، يمضي صعدا ، متدرجا نحو الغايات البعيدة مقتربا منها ، لا تثنيه عقاب ، وإنما تتعاون على نموه كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والعلمية ، وتشارك جميعا في ازدهاره الفني يبدو الخط البياني الذي رسمه الشعر ، يمضي منحدرا في شيء من الضمور والانكماش »(1) .

وحين يقول في موطن آخر : «ولعل الخلاف الكمي هو الذي قاد الى هذه المخالفة الكيفية ، فإذا نحن لا نشهد نمو الشعر على مثل ما شهدنا من نمو النثر ، وإذا نحن نستمع الى مثل هذه القصائد المعلقات التي كنا نستمع اليها في الجاهلية ولا الى مثل ما نعرف من المذهبيات أو

1) شكري فيصل / المجتمعات الاسلامية في القرن الأول / ص / 357 – 358 .

المجمهرات .. إنما هي ، غالبا ، مقتطعات وأبيات ومواقف معدودات تنزل من غير شك ، دون منزلة النتاج الجاهلي أصالة وقوة أسر وشدة تأثير»(1) .

هذه نظرة شكري فيصل الى نثر ما بعد الإسلام كمنا ، وكمّا ، نظرة حاول صاحبها في الموطن الذي اعتمدناه تجاوز آفاق الجزيرة لأنه كان يمثل صورة الأدب في العالم الإسلامي الذي منه الجزء الذي نتحدث عنه ، وكان يرسم لهذا الأدب خطه البياني في حقليه الشعري والنثري ، وانتهى الى ما أقررناه هنا في المجالين ، والى ما هو أبعد من ذلك إذا ما وددنا الإحاطة أكثر ، وذاك ما هو غير ممكن هنا . على أننا نرى أن الاستئناس بريء فيصل «هذا» إنما يسمح لنا فقط باعتماده كحكم دقيق بما يخص المنطقة المشرقية من العالم الإسلامي بل لما يخص ديار الإسلام الأولى وما يحيط بها . أما ما عدا ذلك فإننا في ديار المغرب الإسلامي – العربي – لا نشاطره في ما عزم عليه في الفقرتين ، وفي غيرهما لأسباب أساسها طبيعة الفتح الذي عرفته المنطقة ، والذي شد فيها عن بقية الجهات ، أما المجتمع الذي يوجه له فنون النثر التي انتشرت في المشرق على هذا العهد بشكل مدهش ، هذا المجتمع الذي لا يهضم اللغة التي يخاطب بها خلال الفتح ، ولا يستوعب مضامين النص الخطابي ، أو الرسالة ، أو الوصية كما هو الحال عند المشارقة أهل اللسان المبين . يضاف الى ذلك أوراق المغاربة المطوية . وأقلامهم المحطمة ، التي رأيناها – ولقرون عدة– قبل الإسلام ، ومع الإسلام غائبة عن تسجيل ما ينبغي أن تسجله مما يخصها في أدبها وتاريخها ، وفكرها ، وفنها ، وثقافتها بصورة عامة .

1) نفسه / ص/ 358 .

هذا الذي يقودنا الى اعتبار ندرة النص النثري على عهد الولاة في هذه الديار كندرة النص الشعري ، ويجعلنا لا نكرر التبريرات التي المعنا اليها في الصفحات المتحدثة عن الشعر يلحق بها ما ذكرنا منذ حين . ولعل هذا ما جعل واحدا كطمار وهو يؤرخ للأدب العربي الجزائري ، منذ تعريب الجزائر الى اليوم لا يثبت نصا واحدا في كتابه لهذا العهد – وهو – ومهما كان تقصيره الذي لا يستطيع نكراه وتبريره ما يؤكد هذه الحقيقة .

وبالنسبة لنا – وبعد الجهد اليسير الذي قمنا به – تجلى لنا وجود نصوص نثرية قيلت في عهد الولاة ولكنها قليلة ؛ بل نادرة ، وهي النصوص التي تحددت لنا في : الخطبة ، الوصية ، الرسالة .

فالخطابة التي هي من الفنون الأدبية التي عرفها المجتمع العربي في عهد مبكر من حياته كشعوب الدنيا عرفت ازدهارا كبيرا في العهد الإسلامي لوجود أسباب وعوامل داعية الى انتشارها وسيادتها ، وتعدد موضوعاتها ومواطنها ، وأول نص نلتقي معه كنموذج للخطابة في أول عهدها في منطقة المغرب العربي هو نص الوالي المجاهد موسى بن نصير الذي القاه في جامع القيروان عشية نزوله واليا على المنطقة سنة 88هـ والذي محتواه : «أيها الناس انما كان قبلي على افريقية أحد رجلين : مسالم يحب ويرضى بالدون من العطية ، ويرضى أن يكلم ويحب أن يسمع ، أو رجل قليل المعرفة راض بالهون ، وليس أخو الحرب إلا من أكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمض ، وسمت به همته ولم يرض بالدون من الغنم ليتجر ويسلم ، دون أن يكلِم أو يكلَّم ، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق نريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا في

حزمه جازما في عزمه ، متزايدا في عمله ، مستشيرا لأهل الرأي في أحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتجاسر افحاما ، ولا للمتخاذل احجاما ، ان ظفر لم يزده الظفر إلا حذر ، وإن نكب أظهر جلادة وصبرا راجيا من الله حسن العاقبة ...

إن كل من كان قبلي كان يعمد الى العدو الأقصى ، ويترك عدوا منه أدنى ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة ، وأيم الله لا أديم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين ، بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين»(1) .

من التقاليد التي نعرفها عن الولاة المسلمين أنهم يحددون برنامج عملهم –كما نقول اليوم– في أول خطبة يلقونها حين يأتون القطر أو المنطقة التي ولتهم الخلافة أمرها ، وشؤونها ، وخطبة موسى بن نصير هذه صورة لذلك ، فالرجل أتى منطقة بلغه عنها ما بلغه ، فحدد منهجه في تقويم أمورها وتوجيه أعمالها لقد كان خبيرا عالما بشأنها وشأن أهلها ، كان يدري أن هذه المنطقة لم تظهر بعد من المعارضين ، وكان يدرك أن من تقدمه إنما يوغل في الأعماق متجاوزا لما يحيط بعاصمته مما أبقى الخطر ممكنا الحدوث في كل الأحوال ، فهو بذلك يبدأ بوتد الخيمة ، بل بركيزتها ؛ أي يبدأ بتقويمها ، ثم يأتي الأوتاد والحواشي وبعد ذلك يبصر في الآفاق الآخرى ، الى غير ذلك مما المع اليه بخصوص فئات الناس ، وطبائع هذه الفئات والجهاد ، أو الحرب وغايته ، وأهلها المتمرسون المباشرون له .

---

1) بونار / ص/ 48 ، 49 .

هذا هو المحتوى الإجمالي الذي هو محتوى أي خطبة تقال في عهده ، وتقدم لمن خاطبهم ، أو من هم على شاكلتهم في أي جزء من العالم الإسلامي ، وقد عمد فيها صاحبها الى الاسلوب العربي المعهود في الخطابة ، والى المنهج المتبع من طرف الخطباء ، فكان هذا الإيجاز البالغ ، وكانت هذه الدقة المتناهية ، وهذه الفواصل السجعية المحدودة التي زاوجت الجمل بعضها البعض ، ووازنت بينها فأعطت جرسا موسيقيا مؤثرا يقرع الآذان ، ويشد الألباب ، ويملأ الأذهان ، وعبارة جزلة وأسلوبا سلسلا جمع الانشائية الابداعية ، والعلمية المنطقية المقنعة ، فخاطب بذلك الوجدان والعقل معا ، وهذا بالضرورة يؤكد اختمار القضية أو الموضوع في صميم هذا المجاهد المؤمن ، فكنا – نتيجة لذلك – نلمس حرارة عواطفه ، وصدق عزمه ، وحسن نيته في كل عبارة حدثنا بها ، وضروري أن تكون الفصاحة العربية التي كانت – وما زالت – نموذجا يحتذى مساعدة على تمكينه من أصابة المعنى ، وإثرائه بألفاظ قليلة ، وأسلوب بسيط – كما يقول القدماء – .

أما النص الآخر في الموضوع ذاته ، فهو للأمير عبد الوهاب الرستمي أمير تيهرت الذي خاطب فيه من عناه في حفل توليه «السمح بن الخطاب» نائبا عليه مدة غيابه ، قال : «قد علمتم معشر المسلمين أن السمح وزيري ، وأخص الناس لي ، وأحبهم الي ، وأنصحهم لدولتي ، ولذلك لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسي تمنينا لرغبتكم ، فها أنا ذا قد وليته عليكم ، فأحسنوا الطاعة والإنقياد لأوامره ، ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يأذن بسخط الرب وبمخالفتنا »(1) .

1) نفسه ، ص / 55 .

ما أشبه اليوم بالبارحة !! لولا دقة الرواية التي وصلتنا وأوصلت لنا خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عشية توليه الخلافة لقلنا أن خطبةعبد الوهاب هي ذات خطبة أبي بكر،أو خطيب آخر بهذا العهد تولى المهام نفسها وتحدث في الموضوع ذاته ، الأمر الذي مكن هؤلاء القوم على رغم ضعفهم ، وفقرهم ، وقلتهم من سيادة العالم عن طريق الالتزام بالوحدة في القول والعمل ، أي أنهم كانوا ينطلقون من منبع واحد ، ليصبوا في جدول واحد ، منبع الثقافة العربية الإسلامية وجدول المجتمع الإسلامي .

فإذا تجاوزنا الخطبة الى الموضوع الآخر الوصية فإننا نسوق وصية عقبة بن نافع لأبنائه ، والتي يقول فيها : «يا بني ، إني بعت نفسي من الله ولا أدري ما يقضي علي بسفري . يا بني ، اني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : املأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله وخذوا من كلام العربي ما تهتدي به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق ، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار،وهم بالليل،فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، ولا تأخذوا دينا إلا من أهل الورع ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين ، فيفرقوا بينكم وبين الله ، ومن احتاط سلم ونجا»(1) .

لقمان أخر في وصية الحياة ، وطرق أتيانها ، وعبور عالمها المار ، الله، التراث «الكلام العربي» التقشف والعفاف ، أو الزهد «الدنيا» والعلم وأهله . وبعبارة أخرى الله أو الوجود،الغاية ، النهاية ، الأدوات المحققة لذلك . والمطايا التي تركب في كل الأحوال ، وهي المطايا التي تظل

1) نفسه ، ص / 48 .

منشد كل الأجيال والعصور سواء تبنت ثقافة الموصي وعقيدته وتفكيره أو غيرها ما دام القصد -في النهاية- هو الوصول الى السعادة ، وهذه حلم كل مخلوق على هذه البسيطة .

ونصل – بعد هذا – الى أخر النص الذي يمثل الرسالة ، وقد أخترنا الرسالة التي بعث بها صفوان بن حنظلة والى طنجة الى أهل هذه المدينة في ثورة الخوارج ، والتي كتبها بعض من العلماء الذين أوفدهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز لتعليم الناس دينهم ولغته ، وهم : «سعد بن مسعود ، وحيان بن أبي جبلة ، وطلق بن حايان» ، وغيرهم ، فكتب هؤلاء على لسان حنظلة ، أوله بعدما طلب مساعدتهم :

«من حنظلة بن صفوان الى جميع أهل طنجة ، أما بعد فإن أهل العلم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ قالوا إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل الى عشر آيات : أمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومتشبهة ، وحلال ، وحرام وأمثال . فآمره بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة عن الأولين ، والأخرين ، ومحكمة يعمل بها ومتشابه يؤمن بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يجتنب ، وأمثال واعظ ، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشرة بالمبشرة ، وأنذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، و«يروي» العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله مع طاعة واضحة ، ونية صالحة فقد أفلح ونجح ، وحيا حياة الدنيا والاخر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(1) .

إن ما يعرف عن النثر العربي القديم هو ذلك الإيقاع الموسيقي

1) نفسه ، ص / 54 . والرياض لأبي بكر المالكي ، ص / 147 .

الذي يمكن النفس من الإهتزاز له ، والإطراب به ، وهذا الإيقاع هو ما تنشئه تلك الحروف التي تختم بها الفواصل ، والتي تتحد في أكثر من جمل ، ومن ثم كان هناك ضرب من النثر الفني الذي قاله الخطباء والحكماء العرب ، وكان ما يعرف بنثر سجع الكهان ، ولما كان الإسلام يخالف هذا الصنف الأخير ويمجه ، فقد فك أسر الجملة العربية ليس من الحروف السجعية المقبولة التي نجدها حتى في القرآن الكريم ، ولكن في المعاني المستنتجة من هذه الجملة التي تتطلب جهدا ذهنيا مركزا يفوق المعقول أحيانا للوصول الى القصد المراد وهذا يعني أن البديع في سجع الكهان لا يعني الفواصل وحدها بقدر ما يعني كذلك اضرب الأناقة والزخرفة التي تثقل بها العبارة المعبر بها ، والتي تقصد لغاية التأثير في المستمع ، والإستحواذ على عقله ، وفكره ، ولما كان هذا الأسلوب – أسلوب التأثير – مطلوبا في مواقف كلحظة التحميس لخوض المعركة مثلا فإن المقابل الذي يعني الإفهام مطلوب كذلك .

والعملية هنا ذات وجهين ، ولما كان «الكاهن» مستعدا للتضحية بالوجه الثاني – لإفهام – فإن خطباء الإسلام ووعاظه غير مستعدين لهذه التضحية لهذا كانت هذه الحقة السجعية في جملة النثر عند هؤلاء في الخطبة ، أو في الوصية أو في الرسالة أو الدرس ، أو في أي لون أدبي آخر أستهدفوه .

وهذا يعني -بالضرورة- الى جانب سيادة النثر ، وأخذ مكانة فاقت مكانته الشعر في أحيان كثيرة – يعني – توجيه النثر وجهة أحرى ليس في مضامينه لأن ذلك من تحصيل الحاصل لحكم الموضوعات الجليلة ، ولكن في مبناه ، ويمكن أن يوجز بعض هذه السمات الجديدة مجارة لمن

تقدمنا – بعد هذه التوطئة – واستنتاجا من النصوص السابقة في الإيجاز الذي ظل أساس البلاغة العربية وما يزال بتوافقه ، وتلائمه مع هذه اللغة الفنية الراقية التي لا تشاركها أي لغة من لغات العالم في ميزتها المتعددة التي استهدفت بسببها في مختلف العصوع والأزمان ، ثم الوضوح : وضوح العبارة ، ووضوح الفكرة ، وضوح العبارة للهروب من الشاذ ، والنادر ، والغريب ، ... ولعل ارتجال هذه النصوص – في الأغلب – هو الذي قاد الى تحقيق هذا الوضوح غير المخل بالمعنى – طبعا – وبالبناء الفني للعبارة .

أما وضوح الفكرة فلأن الموضوعات التي تناولها المتحدثون معروفة من جهة ولأنها من جهة أخرى شغل الناس كلهم ؛ ثم – أخيرا – لأنها تستوحي من القرآن الذي هو القاسم المشترك الأعظم بين كل الفئات الإجتماعية تلاوة ، ودراسة ، وتدريسا ، وحفظا ، ورواية ، ونقلا ...

فكان – نتيجة لذلك – أن خرجت تلك الجملة السجعية التي كانت تحكم في قوالبها إحكاما دقيقا يتجاوز أحيانا حد الاسراف في الصنعة المزخرفة لها من أعناف الزجاجات التي اعتمدت لقولبتها ، وبذلك تمكن النثر الفني العربي من ترك بصمات واسعة ، واضحة مكشوفة على مختلف العلوم ، والفنون في العالم ، واستطاع أن يحمل هذا التراث عبر العصور والأجيال وأن يحميه من التشويه ، والتحريف والمسخ الى يوم الناس هذا ، ومنه هذا الذي نما في ديارنا هذه – ديار المغرب العربي الاسلامي – .

الفهرس

رقم الإيداع 43 ـــ و / باتنة ـــ 1986م
دار الشهاب ـــ باتنة

